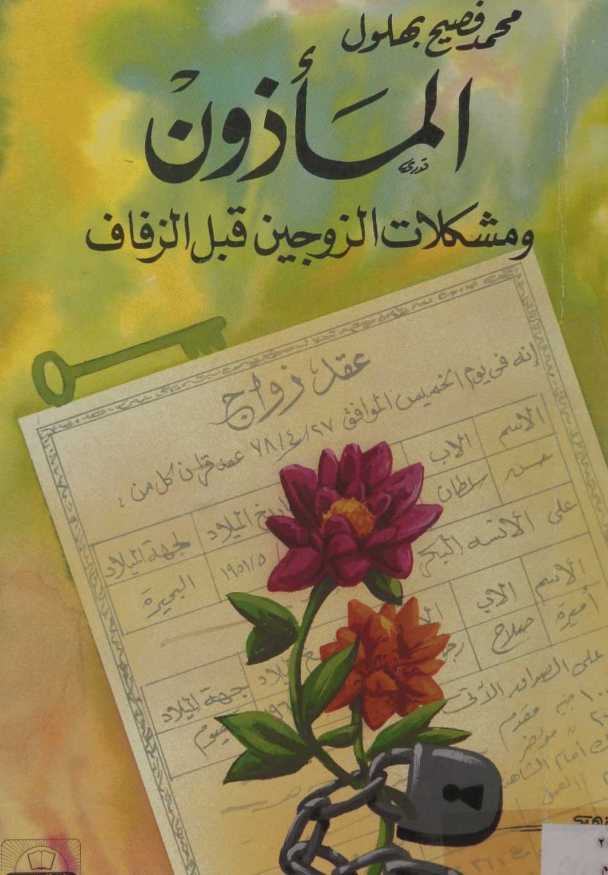

محمد فصيح بهلول
المأذون
ومشكلات الزوجين قبل الزفاف
عقد زواج



المأذون
ومشكلات الزوجين قبل الزفاف

تأليف / محمد فصيح بهلول



الطبعة الأولى

١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م

دار البشير للثقافة والعلوم الإسلامية

طنطا : ٣٣ شارع بطرس أمام مدرسة المعلمات ت : ٣٢٢٨٩١

المنصورة : مساكن الشناوى بجوار مسجد التوحيد ت : ٣٥٣٦٩٥

بسم الله الرحمن الرحيم



بسم الله الرحمن الرحيم

التقديم

عندما تناولت مشكلات الأزواج والزوجات بالبحث والدراسة كنت أرمى إلى الاستعانة بهذه الدراسة فى مساعدتى على حل المشكلات الزوجية التى تطرح أمامى كل يوم .

فكان هدفى محدوداً بهذه الحدود فقط فى البداية . ولكن تكرار المشكلات بإلحاح إلى الدرجة التى كنت أميزها أحياناً من بدايتها بشكل يكاد يكون قاطعاً جعلنى أفكر فى خطوة أكثر اتساعاً من خطوة الإصلاح بعد حدوث المشكلة ، ذلك بإلقاء الضوء على المشكلات البارزة قبل حدوثها لتحديد عناصرها وكيف تبدأ وكيف تنتهى فربما أفادت البعض فى المواقف الصعبة المماثلة قبل ترديها أو قبل أن تبدأ .. وهذا هو منتهى أملى .

ولقد كانت الفكرة الغالبة على تفكيرى فى البداية هى جمع كل المشكلات الزوجية الرئيسية التى أستطعت حصرها آنئذ فى اثنين وثلاثين مشكلة فأخذت أضعها تحت الدراسة والملاحظة واضعاً يدى على جزئياتها تدريجياً يوم بعد يوم ، ثم اكتشفت بعد أربع سنوات من هذه الدراسة والمتابعة أنها مهمة عسيرة جداً فرأيت أن أفك التشابك بين هذه المشكلات وأركز مجهودى فى المشكلات الخاصة بفترة ما قبل الزفاف فهى أكثر أهمية فى نظرى لأن معظم مشكلات الزواج تمتد جذورها بشكل أو بآخر إلى فترة ماقبل الزفاف .

ونظراً لرغبتى فى أن أفيد أكبر عدد أقدر عليه من الشباب المقبل على الزواج رأيت أن أسرع بنشر الجزء الخاص بمشكلات هذه الفترة ، خاصة أننى لا أستطيع التكهن بالوقت الذى أستغرقه فى دراسة باقى المشكلات الزوجية .

إن عملية تجميع جزئيات كل مشكلة لإعطاء الصورة العامة لها عملية شاقة جداً ولاشك رغم أننى تصورتها فى البداية غير ذلك تماماً ، ذلك لأن عناصر المشكلة الواحدة تختلف من حالة لأخرى ، كما أن متابعة نفس الحالة لمعرفة تطوراتها لم يكن بالإمكان دائماً ، ذلك بالطبع على الرغم من أننى لم أستطع أن أكون متفرغاً تماماً للكتاب .

وقد يرى البعض أنه كان ينبغى أن أطرح المشكلة ثم أضع لها حلولا من عندى أو استرشد بحلول مأثورة عن سلفنا الصالح . هذا رأى صائب لاريب ، بل تلك كانت هى الرؤية المبدئية حين فكرت فى وضع هذا الكتاب ، لكننى وجدتنى بهذا سأضع نفسى داخل الإطار التقليدى مما يبتعد بى عن هدفى من وضعه وهو تسليط الأضواء على بعض العيوب الخاصة بتصرفاتنا والتى تخلق الأزمات والمشكلات الزوجية ومحاولة إنقاذ الموقف قبل أن يصل إلى التأزم ..

هذا شىء الشىء الثانى هو أننى كنت أضع فعلاً بعض الحلول فى مناقشتى مع أى زوجين أثناء بحث الخلاف ولكنها كانت حلولاً تناسب كل حالة على حدة ، فرغم وحدة المشكلة إلا أن اختلاف أعراضها وتنوع شخصيات أصحابها يوجد دائماً تفاوتاً فى الحل مما يصعب معه وضع حلول عامة وتطبيقها على كل الفئات باعتبار أن المشكلة واحدة . أضف إلى ذلك أن هناك حلولا تولد من داخل الحالة نفسها ومن النادر تكرار نفس الملابسات فى حالة أخرى .

شىء ثالث هو أن الفترة بين الخطبة والزفاف والتى تسمى بفترة (الخطوبة) أو بفترة (عقد القران) هى بدعة حديثة العهد فرضتها الظروف الاجتماعية المعاصرة ولم تكن على عهد سلفنا الصالح ، فهى مرحلة غريبة بعض الشىء ومتأرجحة بين شريعة الله من ناحية والعرف السائد من ناحية أخرى . فلم يكن معهوداً فى تلك الأزمنة أن يتم عقد القران ثم ينتظر العروسان سنوات قبل زفافهما ، فكنت أتوجس أن أضع حلولا مطلقة لأن العرف شىء والشرع الباقى شىء آخر ، فكانت تأتى الحلول مؤقتة ولكل حالة على حدة .

ولقد جعلنى هذا النقص أعرج على نظريات علم النفس والسلوك باحثاً عن معطيات جديدة أو إجابات لا تتعارض مع الشريعة الإسلامية فوجدتنى أسبح فى خضم من التيارات المتعارضة والنظريات المتناقضة التى تحدد أنماط السلوك الفردى والسلوك الانعكاسى أو رد الفعل .. إلى آخره مما أعاقنى عن البدء الفعلى فى وضع الكتاب فترة طويلة ، بل وصل الحال بى إلى أن صرفت نظرى بكامله عنه ولم أشرع فى إكمال مسيرتى فيه إلا بعد أن تركت نفسى على سجيتها تماماً فى كتابته رغم الافتقار الذى أشرت إليه .

جعلتنى هذه الأسباب وغيرها أنحى جانباً فكرة طرح حلول ثابتة للمشكلات . خاصة أن هناك العديد من الكتب تخصصت فى هذه المهمة . ومع ذلك فكل مشكلة قابلتنى ولها حل شرعى ذكرته دون تردد لأن العبرة أولاً وأخيراً بعموم النص لا بخصوص السبب .

ويهمنى هنا أن أوضح أن ما طرحته من قضايا ومشكلات لم تكن هى كل مشكلات فترة ماقبل الزفاف التى واجهتنى ، فهناك مشكلات أخرى لم أستطع أن أصل فيها للآن إلى نتائج حاسمة ومؤكدة أستطيع أن أستريح إليها فاضطررت لاستبعادها .

وحين شرعت فى وضع هذا الكتاب أخذت على عاتقى ألا أجعل من نفسى واعظاً أو مرشداً للأزواج والزوجات أوجه لهم النصائح بشكل مباشر ، فالنصح ثقيل وكنت أخشى أن ينفرهم هذا من قراءة الكتاب فرأيت أن أسوق لهم وجهة نظرى وأتركهم يتوصلون بأنفسهم للنصيحة أو الفائدة ، حاولت هذا قدر المستطاع ، بل كان هذا الأمر يعترضنى بشدة لأن الإغراء بالنصح سهل ، فكنت أتغلب على هذه الإغراءات بالسخرية أحياناً من الموقف أو بالتساؤلات المتعجبة أو ما إلى ذلك .

شىء آخر كان يعترضنى ويؤرق راحتى هو مفهوم الناس الشهير عن المأذون كرمز للابتهاج والفرح والتفاؤل فكنت أسأل نفسى من آن لآخر هل يتقبل الناس منى كتاباً ينصب كله على المشكلات والخلافات الزوجية ؟ كانت هذه التخوفات ـ على بساطتها ـ كافية لتعثرى فى إخراج هذا الكتاب إلى النور لكن إرادة الله لا تغلب فالحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

محمد فصيح بهلول

طنطا فى ١٢ ربيع الأول سنة ١٤٠٩ هـ

٢٣ أكتوبر سنة ١٩٨٨ م



كلمة لابد منها

المأذون هو أحد الرموز البارزة فى المجتمع . تحبه العذارى وتتفائل به . وتخشاه بعد الزواج وترتاب منه . فالكل يفضل أن يتعامل معه مرة واحدة فقط .

وأنا شخصياً أفضل صورتي في الفرح والابتهاج عن صورتى فى مجلس الخلاف والمشاكل لكنه قدرى أن أكون صاحب رسالة وصاحب عطاء فى الحالتين .

وإذا كان الكثيرون يرون أن دورى الهام هو ربط الزوجين برباط الزواج المقدس فإننى أرى أن دورى الأخطر والأهم هو رأب الصدع وإعادة الوئام بين أى زوجين دب بينها الخلاف . ورسولنا الكريم صلوات الله وسلامه عليه يقول : « أفضل الصدقة إصلاح ذات البين » وهل يطمع الإنسان فى أكثر من هذا ؟

إن هذا يحتم على أى مأذون ألا يدخر وسعاً أو يألو جهداً أو يبخل بوقته فى هذه المهمة المجيدة ، فيتصف بالصبر والأناة وطول البال واضعاً فى ذهنه أن أى زوجين ـ مهما بلغت درجة درايتهما ـ لم يأتيا إليه إلا بعد محاولات مضنية كثيرة منهما لتجنب هذه الخطوة .

أرجو من القارىء العزيز أن يدرك تماماً أن كل كبيرة وصغيرة فى هذا الكتاب إنما جاءت من بحث حالات متنوعة احتدم فيها الخلاف بين الأزواج وكاد يصل بهم إلى الطلاق ، ومنها ما انتهى فعلاً بالطلاق .

إنها مجرد وجهات نظر شخصية تحتمل الصواب والخطأ لحالات حقيقية تأثرت بها وأعملت فكرى فيها أسوقها للقارىء وله أن يأخذ بها أو لايأخذ فهى ليست دراسة منظمة انتهت بنتائج أكاديمية وإنما هى رؤية شخصية لبعض مشاكل حياتنا الزوجية وليست كلها .

والله ولى التوفيق ...

المؤلف



(١) التسرع باللجوء للمحاكم

حينما يطرق الخاطب باب أسرة الفتاة التى يرغب فى الزواج منها تسبقه دائماً آماله وأحلامه فى حياة سعيدة هانئة خالية من مشكلات قد تعترض طريق حياتهما معاً ولا يدور بخلده ــ تحت أى ظروف ــ أن هذه الحياة الزوجية الجديدة البراقة يمكن أن تتحطم على أبواب المحكمة . لا يرى الخاطب أمامه غير أحلام السعادة والهناء والاستقرار فيتقدم ولا يشغل تفكيره شىء من هذه الدنيا إلا مخاوف الرفض أو تأجيل القبول به زوجاً لابنتهم . بل إنه لا يفكر للحظات فى الأسئلة التى ستوجه إليه عن إمكاناته المادية أو عن استعداداته لتأثيث مسكن الزوجية أو تكاليف الفرح أو الشقة ... إلخ . فالعروس تنظر له على أنه فارس الأحلام ، والأسرة تراه محقق المعجزات المنتظر الذى لا يقف فى طريقه شىء لا يدرك الخاطب هذه النظرة إلا بعد أن يفيق على طلبات الأسرة المحددة والجاهزة فى انتظاره والمتفق عليها مسبقاً قبل تحديد موعد الزيارة فيدرك على الفور أنه كان حالماً أو واهماً أكثر مما كان ينبغى .

وتبدأ والدة العروس فى شرح مزايا ابنتها التى لا مثيل لها وكيف أن الخاطبين يتهافتون على طلب يدها ، وتضع الأم الشاب بهذا أمامها فى صراع مع نفسه بعد أن وجد نفسه فى مزاد من يدفع فيه أكثر يحظى بالقبول .. فالأم تعرف بخبرتها أن هذه الطريقة هى أسرع الطرق لغزو عقل أى شاب والسيطرة على تفكيره وتمهيد الطريق لفرض طلباتها مهما كانت مجحفة .

ومما لا شك فيه أنها إن لم تصل إلى تحقيق كل طلباتها فعلى الأقل ستصل إلى الكم الأعظم منها .. وبالتالى تكون الزيارة الأولى للخاطب كلها تمهيداً للوصول إلى هذه النقطة لتحقيق كل ما تصبو إليه الأم طولاً وعرضاً وارتفاعاً .

بالطبع لم يدر بعقل الأم أنها بهذا وضعت البذرة الأولى من بذور الشر فى نفس

هذا الشاب ــ حتى ولو لم يدرك الشاب نفسه ذلك فى البداية ــ لكن هذه البذرة البسيطة تكون هى أساس شجرة الكراهية والعداء الداخلى الدفين فى صدر زوج ابنتها فيما بعد والتى لا ينساها لها ما ظل قلبه يخفق بالحياة .

إنها البداية السيئة دائماً التى لا يدرك أحد أهميتها فيما يتلو ذلك من تصرفات تشكل فى جملتها ذلك البناء الهش من العلاقات الاجتماعية فى المنظور الاجتماعى والعائلى الممتد .

وقد تكون نفس الأسرة قد جربت نفس الطريقة مرات ومرات مع خاطب أو أكثر ولم تحظ منه بغير إدارة ظهره لهم إلى غير رجعة . ومن الصعب على هذه الأسرة أو الأم بالذات أن تدرك أن هذا الأسلوب هو السبب فى الوصول إلى هذه النتيجة بل إنها ترجع فشلها إلى أسباب أخرى فى الشاب نفسه كأن تدعى أنه بخيل أو ضعيف الشخصية أو غير جاد فى طلبه لكن الأعجب من ذلك أنها تضيفه إلى قائمة راغبى الزواج من ابنتها لتحكى عنه بفخر لمن يتقدم لها بعد ذلك على أن فلاناً ابن فلان قد تقدم لها ورفضته .

إنها بذلك إما تؤخر زواج ابنتها كثيراً أو يكون الزواج بعد ذلك عرضة للانهيار عند أول عاصفة تهب عليه .

يرى الشاب كل هذا أمامه ولا يحسه فى أول الأمر بهذه الشدة لكنه مع تكرار الزيارات يبدأ فى الضيق بهذه الطلبات خاصة مع كثرتها وتسلسلها حلقة وراء حلقة حتى تصبح كجنزير حديدى يلتف حول عنقه شيئاً فشيئاً حتى يخنقه . وتبدأ الضغوط والمساومات وبعد دفع المهر يتم عقد القران واضعين أكبر مبلغ ممكن فى وثيقة الزواج كمؤخر صداق للزوجة وكثيراً ما تقع الخلافات على هذا المؤخر وحده ــ دون غيره ــ بسبب رغبة كل من الطرفين فى الاستفادة من هذه الفرصة قبل الدخول فى مشكلات الجهاز والتأثيث وهى النقطة التالية بعد عقد القران .

وقد يتسنى لك أن تسأل أسرة الزوجة عن السبب فى أنها وضعت هذا المبلغ الضخم كمؤخر صداق شرطاً أساسياً قبل عقد القران فتجد الإجابة دائماً أنهم يضمنون لابنتهم بهذا مستقبلها مع هذا الزوج ، ويسألك الزوج بدوره وماذا يضمن لى أنا مستقبلى معها وأنا لم أعرفهم إلا يوم دخلت منزلهم ؟!

ونجد أنفسنا أمام أسئلة محيرة . فالمسألة كلها قائمة على الشك فى النيات وكل منهما يظهر غير ما يبطن . ويتم عقد القران والنفوس كلها مليئة بالشكوك والتحفز انتظاراً لما يسفر عنه الغد من تغير فى موقف الطرف الآخر .

إنها قصة تتكرر أمامى كل يوم وأفاجأ بعد عقد القران بكل طرف منهما يسألنى فى غياب الطرف الآخر أسئلة غريبة لا تدل أبداً على أن المشوار سينجح ، ويبدأ كل منهما فى أخذ احتياطاته ووضع تحفظاته تجاه الآخر .

وبسبب جو التوجس وعدم الثقة بينهما تبدأ سلسلة من الأعمال الاستفزازية الغريبة والتصرفات الخرقاء فأسمع شكوى العروس وأهلها من أن زوجها قلل من زياراته لها وأنه يقتر عليها الهدايا وبما اصطلح الناس عليه باسم (المواسم) .

كذلك يبدأ الزوج فى مضايقة عروسه بتقييد حريتها فى الحياة الاجتماعية شيئاً فشيئاً أحياناً وفى أحيان أخرى يخنق حريتها مباشرة فى كل الذى كان يسمح به قبل ذلك مما يدفعها إلى النفور منه والتمرد عليه بل الخوف تماماً من إكمال مشوار الزواج معه .

ومن الأمثلة الصارخة على هذا ما أراه أحياناً من تراجع بعض الأزواج عما تعهد به من أمور لا تراجع فيها مثل ترك الزوجة تكمل مشوار تعليمها حيث أفاجأ به ينقلب فجأة على عقبيه ويصادر رغبتها فى الدراسة — رغم أنه يعلم تماماً أنها سترفض هذا خصوصاً أنها لازالت فى بيت أبيها مما لا يعنى شيئاً سوى شيء واحد فقط هو التحرش بها .

أيضاً من أمثلة هذه الحماقات كثرة تلفظ الزوج بألفاظ اليمين المعلق بالطلاق على حدوث أى فعل ، فتجد العروس نفسها محاصرة بهذا الطلاق المعلق فى كل تصرفاتها بأنها ستكون (طالق) إن فعلت كذا أو كذا أو كذا .

كذلك هناك من يستعمل سلاح إثارة غيرة الطرف الآخر كأن يصطحب الزوج مثلاً فتاة أكثر إشراقاً من عروسه ليظهر بها فى الحي أو الشارع الذى تقطن به الأخيرة لعلها تراه أو يراه ذووها بصحبة هذه الفتاة ظناً منه أن هذا سوف يكسر شوكتهم أو يؤثر فى معنوياتهم .. وكلها تصرفات تنم عن طيش وعدم نضج .

وتستمر هذه السلسلة من المضايقات والاستفزازات من كلا الطرفين فكل منهما

لن يعدم الوسيلة التى يرد بها باستفزازات مضادة .

وكثيراً ما أجد أن السبب فى تردى الأوضاع يأتى كنتيجة مباشرة لصغر سن الزوجين أو كنتيجة لصغر إحساسهما بالمسئولية التى تصديا لها ، فلا تكاد تمضى أسابيع قليلة على عقد القران حتى أسمع منهما الشكوى المريرة من عدم قدرتهما على التفاهم معاً . وهنا أحس فعلاً بمدى فداحة خطأ التسرع بعقد القران .

وإذا كانت الصدمة هنا تأتى من أزواج وزوجات نالوا حظاًمتواضعاً من التعليم فالصدمة الأشد تأتى ممن نالوا تعليماً عالياً بل وراقياً أحياناً فأسمع منهما عجباً .

العروس تمل حديث زوجها المكرر فترفض الإصغاء له ولا تستعذب كلماته وتزيد الطين بلة بأن تقول له ذلك فى وجهه دون مراعاة لمشاعره دون مراعاة لأقل قدر من اللياقة أو الذوق فى التعبير عن الاحتجاج أو عدم الرضا وكأن العلم الذى نالوه قد أظهر مدى الجهل الذى يعانون منه بل أظهرهم مجرد حملة شهادات دراسية وليسوا متعلمين .

لنفرض أن العروس اكتشفت أن الزوج له شخصية مختلفة عن تلك التى فهمتها واستوعبتها قبل الخطبة أو قبل عقد القران ، هل هذا السبب يعد كافياً كى تخرج على قواعد اللياقة والذوق فى الحديث مع زوجها أو خاطبها ؟! ثم ماذا بعد ؟! هل ستصير الأمور إلى الأفضل ؟! لنفرض فرضاً آخر أننا اكتشفنا أن الزوج كان غشاشاً أخفى عنا أموراً خطيرة يستحيل معها أن نعطيه ابنتنا لتبدأ مشوار زواجها معه فأى تصرف يمكن أن يكون الأصوب فى تخليصها من هذا المأزق ؟!

ثم لنفرض فرضاً ثالثاً أنه تبين لنا أن زوج ابنتنا وقع فريسة للإدمان على تعاطى المخدرات أو حبوب الهلوسة ... إلخ ما هى بالضبط جدوى مصارحته بهذه الحقيقة وفضح أمره بين الناس ؟! هل ننتظر أن يسلم بطلب عروسه منه الطلاق بعد ذلك ؟!

إنها مجرد تصرفات رعناء تدفع الجميع لساحة القضاء بحثاً عن بقايا الكبرياء ويخسر الجميع بلا استثناء ويدعو حالهم جميعاً إلى الرثاء بعد أن ضاعت السنين هباء الهباء .

هذا الذى أقوله ليس فيه شىء من المبالغة بل هى صورة حقيقية حدثت وتحدث كل يوم ولا أحد يتعظ . ما أسهل إشعال الحرائق وما أصعب إطفاءها ..

وكما أن معظم النار من مستصغر الشرر فإن معظم قضايا الأحوال الشخصية بدأت من لا شيء مجرد خطأ بسيط فى توجيه الأمور بل أحياناً ما هو أبسط من هذا بكثير حيث تشتعل الظنون الخاطئة من سوء فهم بسيط لإجابة عن سؤال معين قد يكون فى بعض الأمور الخاصة بالجهاز أو سوء تفسير نوايا الطرف المكلف بالبحث عن الشقة أو ما شابه ذلك من الأمور المادية المعروفة والمحددة ، فيتم تأويل كل الوقائع بسوء نية بعد أن ألقى الشك بظلاله على تفكير الطرفين ويزداد الأمر سوءاً بتوسيع هوة الخلاف بتدخل الغير سواء بحسن نية أو لمصلحة ذاتية تتأرجح بين سوء القصد أو مجرد إبداء أى رأى كنوع من المجاملة وإظهار التعاطف والتآخى بكلمات المؤازرة المصطنعة الصادرة من اللسان ولا أثر لها فى القلب دون أن يعرف هذا المجامل الهمام أن كلماته هذه ليست مجرد كلمات إنشائية بلاغية لأنها وإن كانت صادرة من إنسان غير مبال إلا أنها موجهة لإنسان فى أزمة والإنسان فى هذه الأزمات يصدق بسهولة كل ما يقال له من نصائح ويعتبرها خلاصة تجربة وخبرة . وعلى هذا الأساس يأخذ كل من له رأى بتوجيه النصح بضرورة اللجوء إلى المحكمة لتحصيل المكاسب الموجودة فى وثيقة الزواج .

رغم أن المعروف أن لجوء أحد الطرفين للمحكمة قبل الزفاف ليس له من معنى غير قطع الرابطة والتحرش بالطرف الآخر ليأتى الطلاق برغبة الأخير وحسب طلبه . فلا يعقل أن عروساً تطلب نفقة من زوجها وتأخذها عن طريق المحكمة ولم يتم زفافهما بعد . كما أنه من غير المتصور أن يطلب الزوج دخول عروسه فى بيت الطاعة بقوة القانون لتبدأ حياتها معه فيه باعتبار أنه عش الزوجية فالمعنى المفهوم إذن أن الكل باع الكل لكن كل طرف يتظاهر بالتماسك والقوة ويحاول جهد طاقته أن يتحلى بالصبر وبالنفس الطويل لعل الطرف الآخر يصاب باليأس ويتنازل عن حقوقه . مجرد مباراة أو حرب باردة .

وفى المحكمة تبدأ مرحلة جديدة تماماً من الكذب والافتراءات واختلاف الروايات الفاضحة وشهود الزور الأمر الذى يوغر الصدور بغير داع ويعكر صفو العلاقات بين الطرفين تماماً ولا يعود هناك غير محاولات مستميته من الطرفين لكسب هذه المعركة وحسب دون مراعاة لأى شيء آخر ، ويغدو الأحباء كأشد الأعداء وتقسو القلوب وتتحجر العقول فلا نصل إلى نتيجة إلا عكس ما كان مرجوا من

الزواج والارتباط ويصير حلم حياتهم جميعاً هو النصر المؤزر فى ساحة القضاء على الطرف الآخر .. ذلك الطرف الكافر الملعون عدو الله وعدو الشعب . وينسى الجميع أن الكل خاسر فلا يوجد شيء إسمه نصر كامل أو هزيمة كاملة فكل نصر له ثمن محدد من الخسارة وكل هزيمة يشوبها شيء من الكسب — ولو على المدى البعيد — حتى ولو كانت مجرد خبرة ينفع بها نفسه أو غيره .

إن قادة الجيوش كلهم يدركون هذه الحقيقة . ولم يوجد أى قائد فذ يستطيع أن يفرض على أعدائه الامتثال الكامل لتنفيذ كل أحلامه بل تراه فى أوج نصره يفرض عليهم شروطاً لا تتناسب إطلاقاً وطموحاته حتى لا يضيع قيمة النصر الذى أحرزه .

لماذا لا نأخذ العبرة من هؤلاء القادة الأفذاذ ونطبق هذه الخبرات الغالية فى حالات الخلافات الزوجية أياً كانت أحجامها ؟!

إن الزواج أسمى كثيراً من تشويهه فى ساحة المحكمة . وإن أسرار بيوتنا أرفع من أن تهدر بين طرقات المحاكم . والعاقل هو من يعرف كيف يمنع أعداءه من فضح أسراره . وقد يعرفونها ، حق المعرفة لكنهم عاجزون عن استغلالها ضده بالشكل الذى يتمنون .

لكن الواقع أن هذه النظرة المثالية لا تتوافر لأكثر الناس فأحلامهم وأوهامهم تغريهم بالتعجل واللجوء للمحكمة من أجل البحث عن النصر المؤزر وكل منهما يعتقد أنه على حق مائة بالمائة وأن الطرف الآخر مع الباطل مائة بالمائة إلى أن تتبخر هذه الأوهام مع مرور السنوات ويزداد تورط الجميع فى القضايا والدعاوى التى لها أول وليس لها آخر حتى تنتهى بمكاسب لاتذكر ولا تستحق أو حتى بمكاسب أقل كثيراً مما كان يمكن الحصول عليه بالتفاهم والمفاوضات العاقلة متصفين بالصبر وقوة الإيمان بالله .

إذن المسألة من البداية معروفة جيداً بنهايتها المحتومة ومع ذلك فالكل يتجاهل الأسباب رغم أن الأمور فى مثل هذه الأحوال تتطور بأسرع ما يمكن ، لكنها الأطماع التى تصل بالبنت إلى الحصول فى النهاية على لقب (مطلقة) دون ذنب اقترفته . وما أقسى هذا اللقب على أى زوج جديد يتقدم للاقتران بها . وقد يدفع هذا إلى انسحاب خاطب أو اثنين وربما أكثر بعد ذلك هرباً من هذا اللقب حيث تعتبر بالنسبة لهم (وش محاكم) .

بالطبع لا يصل إدراك الأسرة إلى هذه النتائج إلا بعد أن يقطعوا الشوط كله ويجدوا أنفسهم وقد وقعوا فى شباك الخلافات والقضايا المتنوعة أمام المحاكم منها دعاوى النفقة وطلب الطلاق والطاعة والاعتراض عليها وقضية تبديد المنقولات وربما هناك جنح بتحرير شيكات وايصالات وما إلى ذلك .. هذا بخلاف البحث عن مؤخر الصداق أو باقى المهر المدفوع ... إلخ وغالباً ما يستغرق الدوران فى هذه الدائرة سنوات وسنوات متنقلين بين المحاكم الابتدائية ومحاكم الاستئناف مدفوعين بالعناد والعزة بالإثم مبتعدين تماماً عن منهج الله متجاوزين كل حدود الحق .. أى زواج هذا ؟!

وكيف نقع فى خطأ عقد القران ونحن نعرف مسبقاً أن النفوس غير راضية تماماً وأن وجهات النظر غير متطابقة إلى الحد الذى ترتاح إليه ضمائرنا . لماذا عقدنا القران ونحن نرى الأطماع لا حدود لها ، ولماذا لم نكتف بمجرد خطبة سواء بشبكة أو بنصف شبكة أو حتى بربع شبكة حتى تهدأ نفوسنا وتلوح لنا فى الأفق بوادر النجاح ؟

لماذا بحثنا عن كل الماديات ولم نبحث عن الدين والأخلاق ؟ فنزوج الفتاة ممن يتَّقى الله ونزوج الشاب من ذات الدين ؟ إنها الأطماع المادية التى أتعبت الجميع بالجرى وراءها .

إن لجوءنا للمحاكم وإعلان الحرب بهذه الطريقة يُعَدُّ إطلاقاً للرصاص على آخر أملا فى التصالح فى المستقبل ومن أدار هذه العجلة لا يمكنه إيقافها وإن أوقفها فلن يمكنه الرجوع بها إلى الوراء مرة أخرى .

كلمة أخيرة أحب أن أؤكدها فى هذا الموضوع . أننى لم أقصد من هذه الآر اء بل لم أقصد من طرح هذه المشكلة أصلاً أن أثبط عزيمة الناس عن اللجوء للمحكمة لأخذ حقوقهم لكن هدفى كله ينصب على ضرورة الروية وعدم التسرع بهذه الخطوة مهما كانت المغريات إلا إذا كانت كل أبواب التفاوض موصدة تماماً وكل طرق اللقاء بالطرف الآخر مسدودة سداً محكماً ومؤكداً . هنا يجب على الطرف المظلوم أن يعيد حساباته من حيث المكسب والخسارة وأيهما أفضل له ، أن يقنع من الغنيمة بالاياب أم يلجأ للمحكمة تصدياً لصلف وغطرسة الطرف الآخر إحقاقاً للحق .

(٢) مخالفة الإتفاق المبدئ فى الجهاز

من الأمور المحيرة أن يتم عقد القران بغير وضع خطوط عريضة لما اتفق عليه من أمور الجهاز فبسبب الكثير من الإحراج أو عدم الرغبة فى إثارة المشاكل يترك البعض أموراً متعددة بلا تحديد فتظل معلقة على أمل أن تحل تلقائياً مع الوقت أو تترك اعتماداً على أن العرف قد جرى على أن طرفاً معيناً هو المكلف دائماً بتجهيز هذا الجزء أو ذاك . وقد تكون هذه القضية بسيطة إلى حد ما عند البعض منا لكنها تعد مسألة جوهرية عند السواد الأعظم من الناس وإذا حدث ووضعت هذه القضية فى أى وقت من الأوقات موضع المساومة فإنها تنتهى بكارثة تدمر هذا الزواج تدميرا .

ففى حوالى ٩٠ ٪ من حالات الطلاق قبل الدخول والتى يكون سببها الاختلاف على الجهاز يكون السبب الرئيسى فيها هو عدم تحديد التزامات كل طرف بما سينهض به من هذا الجهاز وجعل مثل هذه الأمور معلقة أو متروكة للظروف . ورغم أن هذا الموضوع من الموضوعات الحيوية وبخاصة فى هذا الزمن الذى أصبحت فيه المشاركة بين الزوجين فى تأثيث منزل الزوجية أمراً عادياً تماماً فإننى ألاحظ أن حالات الطلاق بهذا السبب كثيرة ومتنوعة وإن اختلفت البدايات أو تراكمت خلفها مشكلات أخرى أو أخذت أشكالاً أخرى خلافاً للشكل النمطى الذى تعودنا عليه الأمر الذى يقنعنى بأن الكثيرين منا لاتزال تنقصهم شجاعة تحديد هذه المسائل بشكل قاطع وهى أمور مرجعها الأساسى إلى جذور اجتماعية متأصلة فينا تمنعنا من المبادأة فى طرح مثل هذه المسائل انتظاراً من كل طرف لأن يتكفل الطرف الآخر بالحديث فيها . حتى أن الطرفين يجلسان معاً جلسات مباحثات طويلة وكل منهما ينتظر من الآخر أن يحدد هو ما سيكون عليه شكل المشاركة .

ولقد طرحت أمامى عدة حالات اتضح لى منها أنهم جميعاً تكلموا فى كل شىء يخطر على البال ما عدا هذه النقطة ورغم هذا فقد حددوا موعداً لعقد القران ودعوا

المدعوين بعد أن حجزوا مكان الحفل واتفقوا مع المأذون ومحلات الزهور ومحلات (الجاتوهات) وفرقة العازفين ومحلات (الفيديو) والتصوير ... إلخ كل هذا ولم يحدد أى طرف منهما ماله وما عليه . ولقد اتضح لى أن منهم من احتاج لسنة كاملة حتى تشجع وفاتح الطرف الآخر فى هذه الأمور . ولا يحدث ذلك عادة إلا بعد أن يكتشف كل طرف أنه يتكلم بلغة مختلفة عن الطرف الآخر ويبدأ الجميع فى اتهام بعضهم البعض بسوء النية أو تعمد إحراج الطرف الآخر أو توريطه فيما لا شأن له به . وتبدأ رحلة شاقة وطويلة من المباحثات المضنية تظللها سحابات من الشك وانعدام الثقة قد يصل البعض فيها إلى حلول مؤقتة للمشكلة وقد يصل البعض الآخر إلى حلول أخرى مناسبة لكنهم يحتاجون إلى وقت لإزالة آثار الشك من النفوس . وهناك من يظل طول العمر وهو يعتقد أن الطرف الآخر أخذ أكثر مما يستحق نتيجة تضحيته لإنقاذ الموقف . وهناك البعض منهم يعجز عن اجتياز هذا الممر الضيق وتتفاقم المشكلة معه إلى درجة يصبح معها من المستحيل استمرار هذا الزواج وينتهى بهم المطاف إلى الجلوس معاً للاتفاق على إنهاء الزوجية وحين أحاول الاصلاح بينهما أو تقريب وجهات نظرهما اكتشف أن الأمور كلها قد خرجت من أيديهم بل وتطورت إلى ما هو أسوأ ولا أجد أمامى مفراً من إجراء الطلاق .

وماذا عمن اتفقوا ؟

على الجانب الآخر هناك حالات اتضح لى من دراستها أن الأطراف اتفقوا فعلاً وحدد كل منهم ماله وما عليه وكانت لدى كل منهم شجاعة تحديد ما يخصه من جهاز الزوجية وهنا يثار سؤال هو كيف انتهى الأمر بهم إلى الطلاق على الرغم من أن الأمور تسير سيرها الطبيعى ؟!

هناك أحياناً أسباب تأتى نتيجة عوارض طارئة لكنها تستفحل نتيجة عدم التعامل معها بأسلوب واقعى بمجرد أن أطلت برأسها وتركت لتكبر وتكبر مع الأيام حتى أصبحت تشغل حَيِّزا يصعب إهماله من حسابات القضية بل إن بعض هذه العوارض قد تشغل الجميع بشكل ينسيهم القضية الأساسية وتصبح هذه المسببات التافهة هى الجانب البارز فى المشكلة وتضيع المسببات الأصلية .

كما أن هناك أسباباً أخرى تظهر بعد عقد القران وتكون لها جذور خفية دفينة

تحت السطح من مرحلة ما قبل عقد القران خاصة إذا كانت الخطبة من النوع الطويل الممل فيبدأ البعض فى إعادة النظر من جديد فيما سبق أن اتفق عليه ومحاولة البحث من جديد فى وضع أسس جديدة لما اتفق عليه علاوة على أن هناك من يكتشف أنه وافق على أكثر مما كان ينبغى له أن يوافق فيبدأ فى التراجع شيئاً فشيئاً عما كان قد وافق عليه مما يعقد الأمور ويدور بها فى حلقة مفرغة ويبدأ فى إضاعة الوقت خاصة أن الطرف الآخر بسبب دقة الموقف يضطر لضبط النفس أطول مدة ممكنة إلى أن يتأكد له أن الأمر لم يعد يمكن السكوت عليه فيضطر للمصارحة مع الطرف الآخر بما يراه من مخالفات جسيمة فى الاتفاق وقد يحدث هذا نزاعاً يزيد الأمور تعقيداً إلى أن نصل إلى النتيجة الطبيعية وهى عدم الالتقاء فى نقطة واحدة .

كل هذا مفهوم لكن ما يدعو للعجب فعلاً هو ذلك النوع من الناس الذين يتقدمون بطريقة خاطئة من البداية وهم يعلمون أنها حيلة ضعيفة أو قصيرة الأجل وسرعان ما ستنكشف إن عاجلاً أو آجلاً مهما طال بها الأمد فنرى الشاب من أولئك يتقدم لخطبة الفتاة وهو يعلم أن ما تطلبه أسرتها غير متاح له ولن يتوافر له ذلك فى المستقبل على وجه الإطلاق ومع ذلك يجلس ويتفق على كل البنود ويطلق الوعود البراقة ولا مانع من أن يغالى فيها بشكل لا يتصوره عقل خاصة إذا كانت هناك محاولة من أسرة العروس لإظهار أن هناك من ينافسه على ابنتهم فيصبح الأمر بالنسبة له مزاداً قد نزله بكل ثقله ولابد من أن يفوز به والواقع كله لن يزيد عن بعض الوعود الكلامية إلى أن يقضى الله أمراً كان مفعولاً . وأجد الكثيرين من أولئك وقد صدق نفسه فعلاً فيلقى بكل ما فى جعبته من سهام مرة واحدة ويتم عقد القران على هذا الأساس على وعد بأن يتم كل شيء فيما بعد طبقاً لجدول زمنى محدد البنود كأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وهو يظن أنه سيمكنه بعد عقد القران تغيير كل هذه الوعود طبقاً للواقع الجديد حيث يكون قد أصبح زوجاً لابنتهم ويكون التعامل معه من هذا المنطلق وهكذا تتكشف الحقائق تلو بعضها وتنهار الأحلام أمام ضربات الواقع المؤلمة .

وتبدأ المباحثات الخاصة بالطلاق ولكن هيهات أن يسلّم هذا النوع من الناس بالطلاق بهذه السهولة فهو من البداية كان يقامر بأشياء كثيرة وكان يحسب لخطواته بمنتهى الأنانية فلا غرو أن تجده يستعمل كل ذكائه فى المساومة على هذا الطلاق

ليحصل على كل ما دفعه وما صرفه فى هذه التجربة تاركاً للفتاة الحسرة والندم ولقب (المطلقة) .

إذن لا داعى لعقد القران طالما استمر الجهاز بغير إعداد ما لم توجد هناك ضرورة ملحة لذلك ، ولا بأس من أن يتم التجهيز أثناء فترة الخطبة . فليجهز كل طرف ما يخصه من نصيب فى هذا الجهاز ويحتفظ به لديه لحين عقد القران الذى يجدر أن يكون متزامنا مع الزفاف ، ولا يجب التوقف طويلاً عند المخاوف التى تدفع الكثيرين إلى التسرع بعقد القران تحت مسميات عديدة الدافع إليها دائماً إما الحرص على عدم ضياع المهر أو الشبكة أو ما إلى ذلك .

إننى أقدّر للبعض مخاوفهم التى تدفعهم للتمسك بضرورة عقد القران قبل الشروع فى التجهيز لمنقولات بيت الزوجية ، ولكنى أعيب عليهم الاتفاقات التى تتم فى هذا الشأن . فهى كلها تقريباً خاضعة للحرج الاجتماعى المتفشى فينا بحيث يكون الاعتماد كله فى هذا الأمر على عنصر قوة وحيد هو عقد القران ، فى الوقت الذى لا يجب أن نحمّل هذا العقد أكثر مما يحتمل . فلا يصح أن يكون عقد القران هو المشجب الذى نعلق عليه نتائج إحراجنا أو مخاوفنا أو تهاوننا فى نواح كثيرة . ويجب أن يكون عقد القران هو التتويج النهائى لسلسلة من التصرفات الواضحة الصحيحة بغير مواربة أو تسويف ، لا أن نجعله وسيلة — مجرد وسيلة — تخدم أغراضنا فى مرحلة معينة من مراحل الاتفاق ثم نفاجأ فى آخر الأمر بأنه تهاوى تحت الأقدام . ولذلك فأنا لا أملّ أبداً من ترديد هذا الرأى كلما عرضت لى هذه المشكلة فأقول وأكرر فى كل مناسبة أنه لا يجب إطلاقاً علينا أن نتخذ عقد القران وسيلة أو مطية تخدم أغراضنا وترفع عنا الحرج بل يجب أن يكون عقد القران هدفاً فى حد ذاته ، هدفاً شبه نهائى أو حتى هدفاً مرحلياً نتوج به نجاحاتنا .

ورغم أن السبب الغالب لإقدام البعض على عقد القران قبل إتمام جهاز المنقولات هو الحيلولة دون حدوث تداعيات غير مرغوبة فى خلال مراحل التجهيز إلا أننى لا أرى مندوحة من أن أذكر أهم ما توصلت إليه من أسباب تدعو البعض لهذا الأمر ، وأستطيع أن أرتبها بحسب رؤيتى على النحو التالى :

أولاً : خشية الطرف الدافع للمهر من إنكار الطرف الثانى وعدم اعترافه بما قبضه إذا نشب خلاف من أى نوع يهدد مشروع الزواج بالتوقف .

ثانياً : تحاشي ما يحدث من تمسك البعض باسترداد ما دفعه فى صورة أموال سائلة ورفضه استردادها فى صورة منقولات .

ثالثاً : خشية الطرف الذى يقع من نصيبه أخذ منقولات بدلاً من النقود أن تتغير (موضات) وطرز هذه الموبليات بحيث لا تصلح له فى زواج آخر أو لا توافق هوى أو ذوق الزوج الجديد ويعود استبدالها عليه بالخسارة ... إلخ .

رابعاً : بسبب التشكك فى النيات يكون أحياناً البديل الذى يطرح فى حالة التجهيز أثناء الخطبة هو أخذ (شيكات) بالمبالغ التى يدفعها طرف للآخر مما يثير الخوف والتوجس أو يسبب الحرج .

وعلى هذا يتجه الطرفان إلى الاتفاق بمنتهى الرضاء والتفاهم على اللجوء لعقد القران دون أن يصرح أحدهما للآخر بما لدية من هواجس دفعته لهذا الاختيار .

ولست أعرف داعياً يدعونا لأن نتنكب الطريق السوى فى أمر من أهم أمور حياتنا إن لم يكن هو أهمها على الإطلاق. فلا يختلف إثنان ـــ مهما بعدت الشقة بين مفاهيمهما ـــ على أن فسخ الخطبة أهون على النفس من الانفصال بعد عقد القران . ومع ذلك فالكثير من الناس يسلك الطريق الصعب أولاً استناداً إلى الحظ وحده وكأنه يقامر بمستقبل الأولاد .

(٣) عدم التفاهم

من الثوابت البارزة فى حياتنا تمسكنا بتقاليد توارثناها عن أجدادنا بعضها خطأ وبعضها خارج عن الدين ، وقد لا تناسب ظروف مجتمعاتنا حالياً ولا التطور الهائل لتفكير البشر لكننا ننفذها لمجرد أنها من التراث الذى توارثناه عن القدماء دون تفكير فى صحته أو خطئه وكأنها تعاليم دينية منزلة من عند الله نحافظ عليها ونتوارثها ونزهو بها . وقد تكون هذه التقاليد مجرد بقايا لقرار خاطىء اتخذه شخص متغطرس أخذته العزة بالإثم ورفض الرجوع عنه حفظاً لماء وجهه وحتى لا يبدو مضطرباً فى تفكيره ومرتجلا فى قراراته فلم يجد حلا أمامه ينقذه من ورطته سوى العناد والإصرار على الخطأ لإيهام من حوله بأنه قوى ويعرف مصلحتهم أكثر من أنفسهم ثم يسير على نهجه الباقون ظناً منهم أن هذا هو الصواب وتتناقلها الأجيال دون أن يسأل واحد منهم نفسه هل هذا هو ما أمر الله به ؟

لقد أضاءت الأديان السماوية للبشر طريقهم بالرسل والأنبياء لكننا مع الأسف ننسى أن ما جاء به الدين هو الباقى على طول الزمان وعرضه مهما تغيرت المجتمعات فإذا انحرفنا نحن عن جادة الصواب وتغيرنا إلى حيث لا نرى أشمل ولا أبعد من مواطىء أقدامنا فلا ينبغى أن نلوم إلا أنفسنا .

إن حديث الرسول ﷺ : « **لا تنكح الأيم حتى تستأمر ولا تنكح البكر حتى تستأذن** » ومع ذلك فهناك من يعجز عن إقناع ابنته بما يراه فى مصلحتها ويرفض مجرد مناقشة مفاهيمها ورؤيتها ويصادر رأيها بالكامل توفيراً للوقت والمجهود من ناحية والإبقاء على هيبته الشخصية من ناحية أخرى ولا يدرى أنه بذلك إنما كتب على نفسه وعلى ابنته الشقاء وسار بها إلى مستقبل مظلم لا يعلم مداه إلا الله فيفرض عليها زوجاً يراه مناسباً ــ وقد يكون فعلاً كذلك ــ لكنها تراه غير ذلك وقد يدفعها عنصر الإرغام والإكراه إلى أن تبغضه وتمقته حتى لو ظهرت لها مزاياه بعد ذلك فإنها

تكون قد كرهته بمزاياه وعيوبه وأصبح غير مقبول لها شكلاً وموضوعاً وقد تعيش معه فى تعاسة وشقاء وقد ينجح فى كسب رضاها وتغيير نظرتها إليه لكن ظلالاً من الكراهية الأولى تظل تغطى جزءاً ليس بالقليل من علاقتها به . يظهر هذا جلياً عند أى خلاف ولو بسيط فى حياتهما اليومية فترتد بسرعة إلى نقطة البداية وتجرده من مزاياه وتراه مفعما بالعيوب وتتسع هوة الخلافات بشكل واضح حتى يشعر كل منهما بأنه بعيد غاية البعد عن الآخر ولن يلتقيا أبداً وتبدأ معاناة الجرى فى حلقة مفرغة من عدم التفاهم والإحساس بالعجز عن حل أبسط المشاكل بينهما ويشعر كل منهما بأنه ارتكب أفدح الأخطاء بهذا الزواج . ومثلما يحدث مع البنت يحدث أيضاً مع الفتى فقد تضطره ظروفه إلى الاقتران بمن لا يرغب فيها وقد يكون متعلقاً بأخرى لكن ظروفه وربما من بيده أمره يفرضان عليه هذا الزواج فيقبل بالأمر الواقع ويؤدى دوراً مرسوماً له لا يقتنع به ولا يستريح إليه ويكون هذا الزواج مثل القنبلة الموقوتة جاهزاً للانفجار فى أى وقت .. رغم ما قد يبدو على السطح من سعادة العروسين ببعضهما وهنا لا يجب أن نغفل أيضاً أن مظاهر حفل الزواج وفرحة الأهل والأقارب تؤثر فى العروسين بعض الوقت بل قل إنها تخدعهما بعض الوقت حتى يتصورا أن الزواج سيغير نظرتهما لبعضهما وستسير الأمور على مايرام وأن التفاهم والتكيف بينهما سيأتى من تلقاء نفسه بعد الزواج .

إن الزواج شىء مقدس فى الحياة بل هو ميثاق غليظ بيننا أشهدنا عليه الله فلا يجوز العبث فيه ولا ينبغى اتخاذه حقلاً للتجارب التى قد تفشل وقد تنجح وإلا لما كانت له هذه الأهمية . ولقد شرعه المولى سبحانه وتعالى للديمومة والتأبيد لكننا بابتعادنا عن تعاليم الدين فقدنا هذه الميزة وانخرطنا فى عالم الماديات فبدأنا نعتمد على العقل والأسباب والنتائج فضاع من بين أقدامنا الطريق .

أطرق كثيراً من المشكلات الزوجية فأجد فيها كثيراً من الثغرات ونقاط الضعف التى يمكن أن أنفذ منها لأستطيع فى النهاية الصلح بين الزوجين لكن لم أجد مشكلة معقدة ومبهمة ويصعب اختراقها أو احتواؤها كمشكلة عدم التفاهم بين الزوجين . وفى المرات القليلة التى نجحت فيها فى تطويق هذه المشكلة اكتشفت أننى فقط أجلت الانفصال بين الزوجين إلى أجل وكثيراً ما ندمت على ذلك حيث كان يتبين لى عندها أنه كان من الأفضل إتمام الطلاق قبل التأجيل وقبل تفاقم المشكلة وما ترتب عليها من نتائج لم تكن فى الحسبان .

فكل مشكلة بين الزوجين يمكن تحليلها إلى عناصر أولية بسيطة تعطينا صورة واضحة عن منشئها . وقد يكون هناك بعض سوء الفهم أو سوء التفاهم لكن اختلاف الرأى لا يفسد للود قضية فكل الظواهر يمكن التغلب عليها بالصبر والمثابرة والبحث الدءوب أما مشكلة عدم التفاهم فهى لا تسمح لك بشىء من هذا فأنت أمام زوجين أصابهما اليأس تماماً ولا يميل أحدهما إلى الآخر بل ولا يرغب فى حل المشكلة فإذا كانا يتصفان بالرقى الأخلاقى والاجتماعى فإنهما يلزمان الصمت فى معظم المناقشة أما الطبقات الأقل أخلاقياً واجتماعياً فإنهما يكيلان لبعضهما الكثير من الاتهامات التى أصبحت أدرك بحكم التجربة أنها ليست هى محور المشكلة إطلاقاً وأنها مجرد ظواهر طافية على السطح يعجزان عن إدراك ما وراءها من دوافع حقيقية تمثل تقريباً أساس المشكلة .

لقد لاحظت ملاحظة طريفة من خلال معايشتى لمشاكل الأزواج ومنها أصبحت أميز بسهولة أى زوجين يجلسان أمامى طالبان الطلاق فأعرف من شكل ملابسهما أن المشكلة التى سيعرضانها هى عدم التفاهم بينهما فقد لاحظت فى معظم حالات الطلاق أن كلا من الزوجين يحضر إلى وقد ارتدى أفضل ما لديه من ثياب فاخرة وتزين كأحلى ما تكون الزينة بل يبالغ البعض فى (الشياكة) كأنه فى يوم زفافه لا فى مجلس طلاق وكأن كلا منهما يحاول أن يلقى بآخر ما فى جعبته من سهام ليؤثر فى نفس الطرف الآخر ليجعله يندم أو يتراجع عما هو فيه بعد أن يلمس بنفسه أنه سيخسر من يستحق التضحية من أجله ... إلخ أما فى حالة الزوجين اللذين يطلبان الطلاق لعدم التفاهم فلا أجد فيهما هذا الاهتمام بمسألة (الشياكة) والتأنق الشديدين بل لا أرى منهما إلا حالة قنوط واتفاق تام على الخلاص من هذه الزوجية ولا ينتظر أحد منهما — بل لا يرغب — فى أى تغيير للمواقف . وسبحان الله فالنفس البشرية مليئة بالألغاز .

إننى لأعجب كيف نربط بين الزوجين برباط الزوجية المقدس والمودة معدومة بينهما بل ولا يقتنع كل منهما بأن صاحبه هو الشريك الحقيقى لحياته ، إننا بذلك ندفع بهما دفعاً إلى الفشل حيث ستنتهى علاقتهما — إن عاجلاً أو آجلاً — بالانفصال أو الخيانة أو بالكبت النفسى والمرض الذى ينتهى بالدمار . إننا نظن أن كل ما نرجوه لهما من خير سيتحقق بمجرد أن يتم الزواج بينهما ولا ندرى أننا فقط نؤجل الطلاق بينهما إلى وقت آخر يكونان فيه قد أنجبا فيه أطفالاً أبرياء يجنون ثمرة هذا

الفشل ويكتوون بآثار الطلاق على نفسياتهم الصغيرة .

إن فترة خطوبة طويلة نسبياً قبل عقد القران تعطينا صورة معقولة عن أبعاد العلاقة الزوجية بين الخطيبين فيما بعد الزواج . يدرس كل منهما طباع الآخر ويعايش تصرفاته معايشة واعية وصادقة ولابد من أن يكون كل منهما يقظاً فى مراقبة تصرفات شريكه ومدى مناسبته لطباعه وسلوكه وهل يزداد كل منهما حباً للآخر واقتراباً من فكره مع الوقت أم تزداد العلاقة بينهما فتوراً وبرودة . هناك من يرى أن أى خطيبين يمكنهما خداع بعضهما البعض حتى لو طالت مدة الخطبة لسنوات . هذا رأى أظنه غير دقيق لأن الإنسان ــ مهما كان ــ تحدث منه هنات وتصرفات عفوية عديدة يمكن من قراءتها الوصول إلى ترجمة جوانب كثيرة من شخصية صاحبها .

لكن يمكن القول أن المسألة لا تنطوى على الخداع ولكن ربما محاولة كل منهما الظهور بمظهر مثالى أو ملائكى أمام شريكه بشكل بارع لكنها على أى حال تكون متبادلة وقد يلازمها الغرق فى الأحلام الوردية وإسقاط كل النوازع السيئة لكل منهما عن الآخر وتصوره كأنه ملاك سماوى . هنا فقط يمكن للمحيطين بهما إبداء الرأى أو إسداء النصح وتنبيه كل طرف منهما إلى ما يرونه من استنتاجات بغير تضخيم للمخاوف .

فالتسرع فى عقد القران ليس دائماً هو الصواب . ونقول دائماً إن خير البر عاجله لكن أليس اتخاذ القرار قبل موعده يساوى تماماً اتخاذ القرار بعد فوات الأوان بل فى الحالة الأولى نتخذ القرار بدون دراسة وتكون المحصلة فى النهاية هى الندم ونكتشف أننا نوقع بالطلاق على وثيقة الزواج .

إننا نتسرع بعقد القران وليست هناك أية روابط مشتركة بين الزوجين بل قد يكون واضحاً للجميع أن المعايير الاجتماعية والأخلاقية بينهما متباينة بل إن وحدة الفكر معدومة بينهما واهتمامات كل منهما لا تلتقى مع اهتمامات الآخر .

كل هذا تبرزه فترة الخطوبة فإذا لم تظهر العيوب فإنها تظهر الاهتمامات والقيم الكامنة فى النفوس .

هناك من يرى أن عقد القران مثل الخطبة بل هو أنسب فى دراسة كل من الزوجين للآخر باعتبارهما زوجين وليسا خطيبين ويملكان حرية أكثر وديناميكية أكبر

فى الحركة والمناورة لا تتوافر للمخطوبين . محتمل هذا وقد يكون لهذا الرأى وجاهته لكنه يضعنا أمام تساؤل .

أليس هذا الرأى اعترافاً صريحاً منا بأن عقد الزواج فى رأينا هو شىء ثانوى لا نعطيه قيمته وأبعاده الحقيقية بل نعتبره فترة اختبار نوايا أو (بروفة) للزواج ؟!

أليس عقد الزواج ميثاقاً غليظاً وثق عرى الصلات بيننا أمام الله ؟!

أكثر من هذا أن جعل عقد القران بداية لمرحلة دراسة الزوجين لبعضهما يؤثر تأثيراً سيئاً فى مفاهيم هذين الزوجين فهما لا يعرفان حدوداً فى العلاقة بينهما بل لا يفهمان لماذا القيود إذاً ، فهما فى حالة لا هى زواج ولا هى خطوبة . حالة هلامية مائعة ، الناس تراهم أزواجاً وفى نفس الوقت يرونهم لا شىء أبداً .

كما أن هبوط عقد القران إلى هذه المنزلة يسىء للجميع ويبرر للشباب الخطأ فى مفاهيمهم وأحكامهم . يؤكد هذا ما يصادفنى كثيراً من إحجام الشبان عن الزواج ممن طلقت قبل الدخول خاصة إذا كان هؤلاء الشبان ممن مروا بتجربة عقد قرانهم والانفصال قبل الدخول إلا إذا اضطرتهم ظروفهم قهرياً إلى هذا .

لهذا اعتقد أن فترة خطوبة معقولة نستطيع من خلالها الوصول إلى تبين الشكل العام لما يمكن أن تكون عليه الحياة بين الزوجين فى المستقبل بإذن الله ونضع بذلك الخطوط العريضة لأسلوب هذه الحياة بينهما ونتركهما متمنين لهما السعادة .

(٤) الشقة

حينما أحاول تذكر عدد الخلافات التى أدت إلى الانفصال بين الأزواج بسبب عدم وجود الشقة لسكن الزوجين فإننى أعجز عن إحصائها . وهو أمر جدير بأن يتأمله الإنسان ويتدارسه بتمهل إنها مشكلة لا تصلح معها الحلول التقليدية وإن كان لها حل فلن يكون فى المنظور القريب إطلاقاً . فالقوانين المنظمة للعلاقة بين المالك والمستأجر لا تشجع إطلاقاً أى مستثمر على أن يبنى عمارة ويؤجرها لأحد وهناك من يجازف بهذه الخطوة ويقبل بالتأجير لكنه يحاول استنزاف أكبر فائدة ممكنة فى وقت قصير بالإضافة إلى الفائدة الثابتة على المدى الطويل فنجده يلجأ للحصول على مقدم إيجار باهظ علاوة على استمرار الإيجار الشهرى الذى غالباً ما يعجز عنه المتزوج حديثاً والذى يرتكز على مسميات كثيرة من (تشطيب لوكس) و (سوبر لوكس) ... إلخ ثم تأتى التقليعة الأحدث ببناء عمارات وتمليك شققها لأناس قادرين مادياً بل إن بعضهم يشترى عدداً من هذه الشقق ليتاجر فيها مستثمراً أمواله بإغلاق هذه الشقق فترة ثم يبيعها بسعر أكبر والأسعار تقفز قفزات فلكية يوماً بعد يوم . أين يجد الشباب المقبل على الزواج نفسه من هذا (المهرجان) وأين دوره وأين مكانه وما حجم أحلامه ؟.. معادلة صعبة .

ومع ذلك فهناك من يتزوج ولا يملك إلا أحلاماً أو بالأصح أوهاماً ـــ بأنه سيجد شقة ليكمل مشوار زواجه ودائماً هناك من يصدقه ، فكثير من الأسر تعقد قران ابنتها فى غير وجود الشقة بل وفى حالات كثيرة يحدث هذا بمجرد وعد من العريس بأن يبحث عن شقة وتطول الأيام وتتحول إلى أشهر ثم إلى سنوات وتَتَبَخَّر الأحلام وتضيع الآمال وتتميع الوعود وتظل الأوضاع تتردى بين الزوجين المرهونين بالشقة والمؤجل زفافهما إلى أجل غير مسمى إنتظاراً للمعجزة وغالباً لا تأتى المعجزة .

وحين تأتينى مشكلة بهذا الخصوص لا أستطيع أن أصل إلى السبب الأساسى فيها من أول سؤال أوجهه إلى الزوجين كما يحدث فى مشكلات أخرى لكننى أصل إلى ذلك بعد فترة من الحوار لأننى فى أغلب الأحيان أجد أسباباً بعيدة تماماً عن موضوع الشقة طافية على سطح الخلاف أنشغل فيها بعض الشىء قبل أن أدرك من الحوار أن زفافهما مؤجل منذ فترة طويلة وهنا أضع يدى على هذه النقطة وأسأل عن السبب فأجد كل الخيوط قد تجمعت فى يدى مع الإجابة وأتبين أمامى المحرك الرئيسى لكل هذه الخلافات الطافية على السطح .

إنه تبدد الأمل فى إيجاد الشقة التى ستطوى بين جدرانها كل مظاهر الخلاف والضيق ونفاد الصبر التى جعلت الحياة بين الزوجين بلا طعم . ويبدو أنها صفة سائدة فينا جميعاً إننا لا نعرف بالضبط ما نريده أو ما هى مشكلتنا على وجه التحديد ؟

دائماً تأتينا الإجابة من طرف آخر خارج دوامة صراعاتنا .

وكما أن الزواج يمثل أهمية عظيمة فى حياتنا فإن مشاكله أيضاً تبدو فى نظرنا عظيمة الأهمية بحيث تستحوذ على كل تفكيرنا وتنعكس آثارها على كل تصرفاتنا وبالتالى تطغى صراعاتنا فيها على كل ما عداها من منغصات وتفقدنا القدرة على رؤية الحقائق الملموسة ولذلك فنادراً ما يلجأ لى أى زوجين على خلاف وأجد أحدهما يدرك العناصر الحقيقية للمشكلة والتى غالباً ما يكمن فيها الحل .

دائماً تختبىء مشكلة عدم وجود الشقة وراء مظاهر خلاف صاخبة وعنيفة تدل على أهمية المحرك فأجد زوجاً يفتعل مشكلة مع زوجته بسبب رغبته فى أن ترتدى الحجاب مثلاً أو تمتنع فوراً عن وضع (ماكياج) على وجهها ، وتعترض الزوجة معلنة أن هذا ليس من حقه إلا بعد أن تزف إليه وتكون فى بيته ، وتقوم الدنيا ولا تقعد ويتهم كل منهما الآخر بالاستبداد وسوء النيه وتبدأ عمليات التجريح وتبادل الاتهامات وأجدهما أمامى يطلبان الطلاق وكل منهما يحمل داخل وجدانه قائمة من الشكوك فى مقصد الآخر أجد كلا منهما مهتماً بإضفاء صفات غير حقيقية على الموضوع ومحاولات تضخيم مظاهر الخلاف بلا مبرر ولا يكون صعباً بطبيعة الحال إصلاح ذات البين فى مثل هذه الخلافات بل إننى أعرف أن كلا منهما يرغب فى الصلح تماماً ولكنه يريد أن يأتى الصلح من عندى أنا كطرف محايد ويظهر للآخر أنه

وافق على الصلح هذه المرة احتراماً لرغبتى فقط وأنا أعرف أنهما لا يريدان منى أكثر من هذه الخطوة ، أن أسمع كلا منهما ويشهدنى على صحة وجهة نظره التى يريد مواجهة الطرف الآخر بها مستعيناً بى فى مساندته فى ذلك ثم أقوم بالتوفيق بينهما وتقريب وجهات النظر وينتهى الخلاف . نعم يمكن أن أفعل ذلك لكن هذا ليس توفيقاً بينهما بل هو مجرد تأجيل الحل إلى خلاف ثان وثالث ورابع إنها عملية قفل الجرح دون تنظيف فأنا أعرف من كثرة ما مر أمامى من هذه الحالات أن تفاهة الأسباب فى أى خلاف واصطناع التصعيد فى المواقف يخفى دائماً وراءه سبباً جوهرياً هو لب المشكلة والمحرك الرئيسى فيها .

ففى الحالة التى ذكرتها علمت أن الزوج عجز عن توفير الشقة التى وعد بها أهل عروسه وبدأت آماله فى ذلك تتلاشى يوماً بعد يوم وهو عاجز عن عمل أى شيء ولم يكن صعباً استنتاج شكل عوامل القلق داخله على ضياع زوجته منه وتبلور هذا القلق فى رغبته إرتداءها الحجاب وعدم وضع (الماكياج) على وجهها وحين رفضت هى ذلك توافق هذا الرفض مع مخاوفه الكامنة داخله من أن يرغبها أحد غيره يمتلك الإمكانات التى عجز هو عن توفيرها كالشقة ويتحطم زواجهما على هذه الصخرة .

إن ما جعلنى أصل بتفكيرى إلى هذا التصور هو أننى حين ناقشته وجدته غير متدين ويؤدى الفرائض بشكل عشوائى كما أنه لم يطلب من أخواته البنات فى أى يوم ارتداء الحجاب أو الامتناع عن وضع المساحيق و (المكياج) كما أن هذه الرغبة تجاه زوجته لم تكن موجودة أصلاً منذ خطبتها وإنما ظهرت فى الفترة الأخيرة التى بدأ يتوارى فيها الأمل فى العثور على الشقة .

فى مثل هذه الحالات لا أذكر له ما توصلت إليه من استنتاجات وأفضل أن احتفظ بها لنفسى لتساعدنى على الحل . فلو كنت قد ذكرتها له لكان منطقياً أن يقابلها بالرفض . لذلك اكتفيت بأن نبهتهما إلى أن المشكلة الحقيقية هى إيجاد شقة للزواج وأن ماعدا ذلك هو (هالات غبار) غيرت ملامح المشكلة وستذهب تلقائياً بعد إيجاد الشقة . إنه الحل الذى وصلنا به إلى أنه لا حل .

فى الماضى القريب كانت العائلات تزوج أبناءها فى نفس البيت شقة واحدة تتسع للجميع . كان يحدث ذلك ــ ويااللدهشة ــ فى وقت كانت فيه المساكن متوافرة بمنتهى الراحة لكنها القيم الأصيلة والنفوس المتواضعة الهادئة والإحساس الرفيع

بالتراحم والمشاركة الوجدانية للجماعة .

أصبحنا الآن نضع الشقة على رأس قائمة الشروط المستحيلة لنشهرها فى وجه أى شاب مقبل على الزواج . لا يرغب أحد أن يتم ذلك على مراحل مع المستقبل بأن يبدأ الزوجان بداية صغيرة ثم بالعمل والصبر والكفاح يمكنهما الوصول إلى جنى الثمار والحصول على سكن أفضل يشعران معه بلذة جنى ثمار تعبهما ويكون بمثابة واحة الراحة فى صحراء الكفاح الشريف .

اليوم ينشد الكل الراحة ويرفض التعب والكفاح والمشكلة تتفاقم .

عرضت أمامى مشكلات الحل فيها موجود لكن أزمة النفوس تمنع تماماً تقبل الحل . شباب يعمل فى أماكن فى أجمل بقاع مصر على شواطىء المرجان بالبحر الأحمر وسيناء وله امتيازات سكنية عظيمة يواجه بالرفض من البعض لاعتبار أن سكن بناتهم بهذا الشكل غير مضمون ويعتبر اغتراباً بالنسبة لهن .

كل هذه المفاهيم يجب أن تتغير ويجب أن توجد العقليات المرنة التى تتعامل مع حقائق العصر . هذا التكالب المرير على عدد محدود من الشقق داخل المدن القديمة قلب موازين العرض والطلب وقفز بأسعار الشقق إلى أرقام فلكية أطاحت بأحلام الشباب وأصبح الأمر بالنسبة لهم منتهياً .

فالإصرار على العيش داخل نفس المدينة التى عاش فيها الآباء ومن قبلهم الأجداد جعل المدن تضيق بساكنيها من ناحية ويرتفع فيها ثمن الأراضى والمبانى بشكل جنونى من ناحية أخرى . هذا بخلاف هجرة أبناء القرى المجاورة للمدن باستمرار والتكدس داخلها . الشىء الغريب أن هجرة معاكسة أصبحت تحدث الآن فالقرى المجاورة للمدن أصبحت الآن هى الملجأ الأخير لكل من ليست لديه إمكانيات شراء شقة فى المدن فأصبح ساكنو المدن التقليديين هم سكان القرى المجاورة لها خضوعاً لمنطق العصر .

اتصل بى أب تليفونياً ذات يوم وطلب منى موعداً يحضر فيه مع ابنته وزوجها ليطلقها منه حيث إنه اكتشف أن زوجها ـــ على حد تعبيره ـــ ولد نصاب وغشاش . عقد قرانه على البنت وسافر للعمل خارج مصر أكثر من ثلاث سنوات من أجل الحصول على مايمكنه من شراء شقة يتزوجان فيها وبعد أن ترك البنت مرهونة

ثلاث سنوات عاد الآن يساومها إما أن تعيش معه فى الريف وإما تنتظر ثلاث سنوات أخرى ليشترى لها الشقة الموعودة .

وفى الموعد المحدد حضر الأب وابنته وحكى كل منها وقائع تدل على أن هذا الزوج يمتلك من خبث الطوية وسوء النية ما يجعله أهلاً لحبل المشنقة فقد عمد إلى تعطيلها لمدة ثلاث سنوات لحرمانها من أى فرصة زواج مناسبة لها حيث كان الشباب يتهافتون عليها والآن يتلاعب بها .

ثم حضر زوجها وكان محرجاً من أى مناقشات ولم يستجب لضغطى وإلحاحى إلى أن وجهت له زوجته استفزازات جعلته يتكلم فقال لى :

(لقد وعدتها فعلاً بشراء الشقة قبل أن أسافر ولكن الأوضاع كلها تغيرت . صحيح أننى أملك اليوم ثمن الشقة لكننى خسرت وظيفتى فعرضت عليهم أن أعمل مشروعاً صغيراً بهذا المبلغ ومن عائده نستطيع أن نعيش ونسكن فى شقة بالإيجار ولا يوجد من يؤجر لنا شقة إلا فى ضواحى المدينة حيث صارت القرى المجاورة امتداداً عمرانياً للمدينة لكنهم رفضوا هذا العرض وماذا أفعل لو أضعت ثمار عملى وجهدى ثلاث سنوات فى شقة من الجدران الخاوية وأبقى عاطلاً عن كسب قوت يومى . أليس استثمار ثمن الشقة هو البديل المناسب لأعيش من عائده أنا وهى وندفع إيجار شقة صغيرة وشيئاً فشيئاً يمكننا فى المستقبل شراء شقة ؟! ألا يمكنها أن تصبر معى وتحتمل بعض الشيء ؟! أليست زوجتى ؟!) .

وهنا صرخت فيه الزوجة أنا لست زوجتك ولن أكون . وقال أبوها له يابنى اصبر أنت وكافح نحن لا نحب الكفاح معك .. وانتهى الأمر بالانفصال .

وقبل انتهاء نفس العام جاءنى نفس الشاب لأعقد قرانه على زوجة جديدة ساعدته فى النجاح لمشروعه الذى بدأه فى مجال صناعة الملابس الجاهزة وقبلت بالعيش معه فى شقة استأجرها قريباً من نفس المدينة وبدآ يتعاونان معاً فى تجهيزها .

فى النهاية أحب أن أسأل مرة أخرى لماذا يقبل البعض بعقد قران ابنتهم مادامت الشقة غير موجودة ؟

وإذا كان هناك من يغامر لماذا يتوقف بعدها فى منتصف الطريق أو يتراجع ؟

وإذا كنا نبدى مرونة فى بعض الأحيان أو فى إحدى المراحل لماذا نتشدد فى

المرحلة التالية ؟ ولماذا لا نقدم الثقة أولاً ثم ننتظر النتيجة ؟

لماذا يتقاعس البعض عن الموافقة على سفر ابنته مع زوجها للعيش فى المدن الجديدة وتعمير مجتمعات جديدة أفضل من هذا الصراع داخل المدن المكتظة ؟

إذا لم تكن لدينا الشجاعة الكافية لإحداث التغيير فالأمر الواقع سيجبرنا على ذلك .

(٥) الغش

من الأمور المسلّم بها عند الناس جميعاً أن الزواج لا ينجح فى مراحله الأولى بغير إخفاء سلبيات كل طرف عن الطرف الآخر حتى يقف الزواج على قدميه ثم بعد ذلك فليكتشف كل طرف فى الطرف الآخر ما يكتشفه من سلبيات فلن يؤثر ذلك الموقف كثيراً على حياتهما الزوجية وإذا سألت طرفاً عن سبب إخفائه بعض الجوانب السلبية منه رغم أنها قد تزعج الطرف الآخر إذا عرفها فإنه يجيبك بأنه إذا كان يخفى أشياء كهذه فإنه من المؤكد أن الطرف الآخر يخفى أشياء مماثلة وأنه لا يمكن أن يفترض البراءة فى موقف الطرف الآخر .

وهناك من يخفى أشياء تافهة لا تقدم ولا تؤخر فى الموضوع لعدم أهميتها من ناحية ومن ناحية أخرى لأن إظهارها قد يعطى الفرصة للطرف الآخر لأن يشك فى أن هناك أشياء أهم قد تم إخفاؤها عنه . علاوة على أن البعض يدرك أهمية الظهور بمظهر ملائكى برىء أمام الطرف المقابل خلال الفترة الأولى على الأقل من بداية هذا الارتباط الجديد .

وأياً كانت الدوافع ووجهات النظر فإن هذه الظواهر لا تزعج كثيراً كما أن تأثيراتها إلى حد ما محدودة ورغم أننى أعتبر ذلك نوعاً من الغش إلا أنه فى نظر البعض مجرد (رتوش) بسيطة لا غنى عنها لتجميل وتلميع الصورة العامة واعطائها شيئاً من مزايا البريق والوجاهة الاجتماعية ليكن .

ليس هذا هو موضوع هذا الفصل إنما الغش الذى أقصده هو ذلك الغش المؤثر تأثيراً سيئاً فى علاقة الزوجين والذى يحدث اكتشافه دوياً هائلاً لابد من أن ينتهى بالدمار إن عاجلاً أو آجلاً إنه ذلك الغش الذى يمثل نسبة لا يستهان بها من حالات الطلاق المستحيل فيها أى حل آخر .

حقاً ليست كل العقليات متشابهة وليست كل النيات طيبة . إننى أطلق إشارة

تحذير عالية لكل من يقدم على الزواج ويجد فى الطرف الآخر إمارة من إمارات التعجل والرغبة فى الإسراع فى الخطا ، فمن خلال عشرات بل ومئات من حالات الزواج اتضح لى بما لايدع أى مجال للشك أن خير البر عاجله فى كل شيء إلا الزواج . ورغم أن الزواج بعيد كل البعد عن المقصود به البر هنا إلا أننا لم نسمع هذه الكلمة تستعمل إلا فى الزواج .

إن التعجل لابد من أن يدعو للشك ولا ينبغى أن يتم الزواج وهناك أى شيء من الشك فى نفس أى طرف قبل إزالته .

إننى من أشد المتحمسين لوجود أى نوع من الخطبة قبل عقد القران ويجب أن تكون طويلة نوعاً ما فذلك أفضل لدراسة كل من الطرفين لجوانب حياة وشخصية الآخر فإذا تأكد كل منهما أن طباع وصفات شخصية الآخر متفقة مع صفاته وطباعه يجب الانتقال إلى عقد القران ولا داعى لإطالة فترة الخطبة أكثر من ذلك فالاعتدال فى كل شيء أقرب للصواب .

إنه ليحزننى أن نسبة كبيرة من الناس ترضخ لمطلب الطرف الآخر بضرورة الإسراع بعقد القران دون ترو ، الأمر الذى أدى إلى كثرة حالات الطلاق بشكل مُرَوِّع حتى صار طلاق البنات شيئاً عادياً فى بعض الأسر بعد أن كان الطلاق هو الكارثة المحققة التى تقع على رأس أى بنت أو أى أسرة حتى أنك أصبحت ترى بعض الأسر فيها أحياناً ثلاث بنات مطلقات قبل الدخول فى وقت واحد . وهناك أسرة طلقت كل بنت فيها مرة على الأقل قبل أن تتزوج فى المرة الثانية وتنجب وكأن الزواج فى تقديرهم لابد من أن يتم مرتين مرة على سبيل التجربة أو البروفة ومرة ثانية للاستمرار والدوام .

صار الطلاق شيئاً عادياً عند الناس ولم يعد عقد القران هو ذلك الميثاق الغليظ . ذلك الميثاق الذى يجب أن نحترمه ونقدسه ونجله ونحميه ونعتز به . لم يعد غريباً أن يعقد البعض القران ثم يكتشف أحد الزوجين أن الطرف الآخر أخفى عنه عيبا خِلْقياً لم يكن يصلح معه للزواج أو عيباً خُلقياً يعترض طريق حياته أو يشكل بالنسبة له عبئاً نفسياً ومادياً كان ينبغى أن يلم به قبل عقد القران فإما يقبل وإما يرفض وتكون له منتهى الحرية .

كذلك هناك من يكتشف بعد عقد القران أن الطرف الآخر له ماضٍ مشين أو

سابقة جنائية أو مرض مزمن أو خطير وكل ذلك يحول بينه وبين سعادته الزوجية التي كان يحلم بها .

ودائماً يكون الإنسان الغشاش وضيعاً فى كل مسلكه فهو دنىء النفس معدوم المروءة يعيش بغير ضمير فهو يبرر الغش الذى يسلكه بأنه لا حيلة له فيما هو فيه وأن الأقدار ظلمته وأنه لا يرى إلا أن الغاية تبرر الوسيلة . إنه يريد أن يتزوج زواجاً مشرفاً ولا مفر من أن يضع شريك حياته أمام الأمر الواقع ، ذلك الأمر الواقع الذى قد يكون صدمة عنيفة تدمره تدميراً ، المهم المكسب الذى يحصل عليه هذا الغشاش .

والغريب أن الغشاش دائماً لا يدرى أنه يغش نفسه أولاً فلو أنه ترك أموره لمشيئة الله لكان له منه سبحانه خير نصير أليس هو سبحانه مدبر الكون ؟! أيعجز عن تدبير أمور مخلوقاته ؟!

لو تأملنا الموقف قليلاً لوجدنا أن الغش ضعف إيمان بالله ونقص ثقة فى قدرته جل شأنه على تدبير أمورنا وترتيب أحوالنا .

ألم يكن الأجدى بهذا المرء أن يصارح الطرف الآخر بحقيقة موقفه ــ باعتباره سيكون شريكاً لحياته وأنه أولى بالمصارحة ــ ثم يترك للطرف الآخر تقدير الموقف . ففى أحوال كثيرة جداً يقبل الطرف الآخر تقديراً منه لصراحته ومروءته وإكباراً منه لأمانته وصدق نياته .

حدث هذا ويحدث غالباً فنحن دائماً نحترم الإنسان النبيل ونعجب بأمانته وصدق طويته ونعتبر صراحته فى البوح بأسراره لنا مدعاة لنا لجعل مهمتنا مهمة مقدسة وإحساسنا بأنه صار أمانة فى أعناقنا لا تقبل مروءتنا أو شهامتنا التنكر له فيتحرك داخلنا التقدير والاحترام لأمانة هذا الإنسان معنا فنبذل من أجله ونعطيه كل ماترفّع عن أخذه منا بالغش والاحتيال .

قد يكون هناك من لديه عقبات قوية جداً كان من نتيجة مصارحته البعض بها أن تنكروا له فى أكثر من محاولة فترسّخ فى نفسه الاعتقاد بأن صراحته لن تجدى فتيلا وأن الغش وخداع الطرف الآخر هو الحل لكن هذا هو القنوط من رحمة الله فمهما كانت العقبات فلن يضيع الله إنساناً وثق فيه وفوض إليه أمره فمهما عانى من تنكر

الغير له فى مرات سابقة لابد من أن يهيء الله له من يقدر فيه أمانته وصدقه .

إن الغش عمل خسيس ينطوى على الخداع والغدر والخيانة . خيانة الغشاش لإنسان وثق فيه إن الغشاش هو الغشاش فى كل وقت وكل سلوك يسلكه . إنه ذلك الإنسان الذى تعود دائماً على أن يعيش على مجهود غيره وتعب غيره . إنه يجنى دائماً ثماراً زرعها غيره يجنيها بالتدليس والخداع .

ينطبق عليه الغش بمعناه الواسع فقد تربى فى بيئة فاسدة أحلت له السلب والنهب عايش فيها دناءة النفس وفقر الضمير وإفلاس العقيدة فأصبح يغش الناس فى كل شيء . فالغش لا يتجزأ .

إن هناك حالات كثيرة طرحت أمامى للطلاق بسبب اكتشاف أحد الزوجين أن الآخر كان يخدعه ويكذب عليه فى أمور فى غاية الأهمية ولم يكتشف هذا الأمر إلا بعد فوات الأوان أذكر منها على سبيل المثال لا على سبيل الحصر النماذج التالية :

ـ مهندس كمبيوتر يعيش بالولايات المتحدة الأمريكية أراد الزواج من فتاة مصرية من إحدى الأسر الطيبة وتزوجها وسافر ليكتشف بعدها أنها كانت متزوجة مرتين ولديها ابنتان تركتهما عند أقاربها وسافرت فى حين أن وثيقة زواجها مذكور بها أنها لم يسبق لها أى زواج وكان هذا كافياً لوضعها تحت طائلة العقاب جنائيا لكن زوجها اكتفى بإرغامها على التنازل عن كافة حقوقها قبل أن يطلقها .

ـ طبيبة أسنان عقد قرانها على طبيب تخدير جذاب فى شخصيته وأنيق فى ملبسه ولبق فى حديثه ثم اكتشفت بمحض الصدفة أنه غير متعلم ويعمل مصوراتى متجول استطاع تزوير شهادات دراسية وبطاقة شخصية وكارنيه نقابة وحين علم بافتضاح أمره بلغت به الوقاحة حداً جعله يساومها على الطلاق مقابل فدية مالية .

ـ قبطان بحرى يعقد قرانه على طالبة بكلية عملية مرموقة الاسم وبعد عامين كاملين انتهى فيهما من تأثيث شقتهما اكتشف أنها كانت طالبة بمدرسة التمريض وفصلت منها لسوء سلوكها .

ـ مهندسة زراعية تتزوج من مهندس معمارى ثم تكتشف أنه مفصول من عمله كملاحظ معمارى وأنه يدمن المخدرات وله زوجة أخرى وأولاد يعيشون فى إحدى المدن الساحلية ومع ذلك بكى أمامى بكاءً مراً مقسماً أنه يحبها ولا يستطيع

الاستغناء عنها .

ــ محاسب يخطب فتاة ويعقد قرانه عليها ويزف إليها فى مدة لم تزد عن ثلاثة أسابيع وبعد الزفاف يدرك السر فى أنه لم يكن يسمح له بالحديث معها سوى دقائق معدودة فى كل زيارة خلال الأسابيع الثلاثة فقد كانت تعانى من توقف نموها العقلى عند سن العاشرة .

ــ طبال بإحدى فرق العوالم يتزوج فتاة من أسرة محافظة ويسافر بها إلى إحدى الدول العربية حيث أوهمها أنه يعمل جرسونا هناك ثم يتركها وحدها بالفندق ويعود بعد أن باعها لأحد سماسرة البشر هناك .

نماذج كثيرة بهذا الشكل حتى أننى أصبحت أشك أن أى زواج لم يشبه شائبه من الغش ولو بسيطة . ورغم أن الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه يقول : « من غشنا فليس منا » إلا أن معظم عاداتنا فى الزواج تغض الطرف عن هذا الحديث الشريف من سيد الخلق وبعدها يظل الكذاب يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً.

لكن هنا سؤال يجب أن نسأله لكل من يستعد للزواج وينوى إخفاء حقيقته عن شريك حياته .. هل يمكن أن ينجح زواج قائم على الغش ؟ وإلى أى مدى ؟

كما قلت الناس لديها الاستعداد إلى تفهم وجهة نظر الشخص الصادق لكنها لا تملك هذا الاستعداد بالنسبة للغشاش لأن الغشاش لا ينظر للأمور إلا من خلال مصلحته الذاتية فقط كما أن نظرته قصيرة لا تبعد أكثر من طول ظله فهو لا ينظر لغير حاضره وكثيراً ما يكون لديه واسع الأمل فى أن يكون المستقبل أسيراً لهذا الحاضر سواء اكتشف أمره أم لم يكتشف . إنه أحط أنواع الاستغلال لحسن النية لدى الناس .

وقد كنت أعتقد أن الغش فى الزواج وقف على الجهلاء أو البيئات الفقيرة وكل ما شابه ذلك لكنها كانت اعتقادات يجانبها الصواب فبكل الأسف عرضت أمامى حالات فشل كثيرة لزواج بنى على الغش كان أبطالها شخصيات بارزة ومتعلمة تعليماً راقياً ومن بيئات تتصف بالثراء والجاه والمركز الاجتماعى المرموق فالمسألة مسألة أخلاقيات ولا علاقة لها بالمستوى الاجتماعى أو الثقافى إطلاقاً .

أصبح الناس ينخدعون فى بريق المظاهر بشكل متنام رغم أن المظاهر البراقة هى السلاح الفتاك الذى يستعمله دائماً الغشاشون كما أصبح الكل يجيد التمثيل بعد أن دخل التليفزيون إلى كل كوخ . فكل من يملك هذين السلاحين: بريق المظهر وإجادة التمثيل أصبح فى إمكانه غزو عقول وقلوب الناس جميعاً وكلما ازداد الغشاش ثقافة ودراية بالحياة ازداد مقدرة على الخداع وإخفاء حقيقته عن الطرف الآخر ، ورأسماله فى النهاية الكلام المعسول .

إن المحصلة التى خرجت بها من متابعتى لأسباب ونتائج هذه المشكلة فى مراحلها الأولى ومراحلها المتقدمة هى أن الغشاش هو الخاسر الحقيقى فى أى زواج وأنه يحطم نفسه بالتدريج وهو جزاء عادل من السماء .

نصحت رجلاً ذات مرة أن يبتعد تماماً عن الزواج عن طريق (الخاطبة) بعد أن حدثنى عن رغبته فى الزواج عن هذا الطريق ولكنه لم يهتم بنصحيتى وتزوج بعدها ثلاث مرات بهذا الأسلوب فى خلال أقل من عامين ونصف وفى كل مرة كان يخسر كل ما معه ويتم إنقاذه من هذا الزواج بأعجوبة حتى أننى فى المرة الأخيرة أقسمت له بأننى لن أمد له يد المساعدة مرة أخرى إذا فكر فى الزواج عن طريق الخاطبة تلك الخاطبة التى تستغل ضعفه أمام كلماتها المعسولة وتزوجه من أسوأ النماذج البشرية التى فى حوزتها ..

والطريف أننى قابلت هذا الرجل ذات مرة فسألته عن حاله فقال إنه قرر فعلاً أن يغير كل شىء تغييراً جذرياً ولما سألته بحسن نية عما ينوى تغييره أجابنى بحماس أنه قرر تغيير الخاطبة بخاطبة أخرى أفضل .

(٦) الحياة مع الحماة

تعودت وسائل إعلامنا بكل الأسى والأسف على افتعال قضايا ساخنة من لا شيء فى أمور لا تستحق إطلاقاً كل هذا التضخيم الذى يستحوذ على تفكير المجتمع ويؤثر فى وجدانه تأثيراً مدمراً . وقد يكون السبب تافهاً والحل من أبسط الأمور لكن توظيف وسائل الإعلام لإبراز هذا الأمر وكأنه قضية بلا حل هو فى المقام الأول عامل هدم وتمزق يجب على كل إنسان متعلم أن يمقته ويرفض معه الإذعان لهذا الالحاح المستمر ويحاول أن يتفهم الأمور على حقيقتها ويكون له رأى فيها وأن يتعلم كيف يرفض الانجذاب لأى فكرة بغير وعى ولا ينجرف مع أى تيار لمجرد أن هناك أغلبية منجرفة فيه .

من هذه الشخصيات التى رسمتها وسائل الإعلام شخصية (الحماة) التى جعلت منها مشكلة المشاكل وأخذت تضخم فيها فى تمثيلياتها الإذاعية والتليفزيونية وأفلامها السينمائية راسمة لها تلك الصورة الكاريكاتورية الكريهة .

كلنا انجرف فى هذا التيار المعادى للحماة وكلنا ضحك من أداء إسماعيل يس للنكات والقفشات المعادية للحماة لكن أليس من حقنا أن نكف عن الضحك قليلاً وتكون لنا وقفة جادة مع النفس نحاسب فيها أنفسنا على ما وصل إليه الحال ؟

ليس عيباً أننا سرنا فى الطريق الخاطىء لكن العيب كل العيب أن نرى وندرك الطريق الصواب ثم نستمر فى السير فى طريق الخطأ . كثيراً ما ضحكنا وسخرنا من أمور اعتبرناها خاطئة ثم اكتشفنا أننا نحن الذين كنا مخطئين فى سخريتنا منها .

ألم نسخر من الخواجات ونستهزىء بهم وبغبائهم وصورنا أنفسنا ملوك الذكاء والفهم والفهلوة ثم اكتشفنا أننا نتأخر ونتدهور وهم يتقدمون ويتفوقون ويبهروننا بالمخترعات والاكتشافات .

ألم نسخر من اليهود وبخلهم وتقتيرهم ثم فوجئنا بهم فى غاية الكرم والسخاء فى إلقاء القنابل فوقنا .

ألم تجعل وسائل الإعلام من المرضى النفسانيين مادة للضحك والسخرية حتى تقلبت مشاكل الحياة وهمومها على الكثيرين حتى صاروا يكلمون أنفسهم فى الطريق ولم يعد هناك بيت يخلو من مريض نفسى .

ألم ترسم وسائل الإعلام صورة ممسوخة هازئة لرجال الدين وعلمائه وظهرت أسوأ النتائج وأوخم العواقب على جيل كامل بأسرع مما يمكن التصور .

إذا كنا قد ضحكنا وسخرنا من بعض شخصيات المجتمع ـــ بغير تفكير ـــ ثم اكتشفنا خطأ انقيادنا وكان ندمنا شديداً على ذلك وكانت لدينا المرونة لتغيير فكرتنا عنها لماذا لا نحاول تغيير فكرتنا عن الحماة خاصة وأنها تمثل وجوداً فى حياتنا لن نستطيع إنكاره ؟! وكم لها من أياد وأفضال علينا ظاهرة وغير ظاهرة .

إنها أم فى كل الأحوال . أمٌ سهرت ورعت وربت أولادها وبناتها التربية المطلوبة منها . إنها إنسانة أدت رسالتها المقدسة فى الحياة . إنها الشجرة المعطاءة التى أثمرت وحافظت على ثمارها حتى نضجت وأينعت وتم اقتطافها وهى سعيدة بهذه الثمار .

وأحب أن أتناول بالبحث هنا (الحماة) من الزاويتين معاً زاوية الزوج وزاوية الزوجة فبناء على ما صادفته من خلافات بين الأزواج والزوجات تبين لى أننا لازلنا متأثرين تأثيراً بيّناً بالتشويه الذى مارسته علينا أجهزة الإعلام فى الماضى ورسخته فى روعنا حتى صارت كلمة (حماة) كلمة غير مستحبة فى آذان الكثيرين منا بل وارتبطت فى الأذهان بمدلول النكد والعداء والتحريض على التمرد وشق عصا الطاعة بالنسبة للزوج وبالنسبة للزوجة هى العدو اللدود التى تناصب زوجة ابنها العداء قبل أن تراها وتعد عليها حركاتها وأنفاسها وتتصيد لها الأخطاء للهجوم عليها فى أقرب فرصة .

ماذا كانت نتيجة هذه النظرة العقيمة بلا تفكر وبلا دراسة ؟

النتيجة أن كل شاب وشابة يرفض الإقامة مع أهل شريك حياته مهما كانت الدواعى والأعذار وإلحاح الحاجة المستمر . الكل يريد أن يريح ويستريح . الكل يرفض دخول التجربة . يرفض لأنه خائف من هذه التجربة يرفض من حيث المبدأ

مجرد طرح هذه الفكرة ويظل يجهد نفسه وعقله فى مشوار البحث عن مسكن مستقل بعيداً عن الأهل وعن المشاكل . فهو افترض هذه المشكلات قبل أن يجرب حظه .

اليوم نتباكى على الماضى الذى كانت فيه لافتة (شقة للإيجار) تواجهنا فى كل مكان نذهب إليه ونلعن الظروف التى قلبت الأمور وجعلت الحصول على شقة رابع المستحيلات . الكل يتذكر من المشكلة الجانب البارز السهل فيلقى باللائمة على مشجب تضاعف عدد السكان وارتفاع تكاليف البناء وارتفاع أسعار أراضى البناء بشكل جنونى ويقارن بين ذلك وبين الوضع فى الماضى من رخص فى الأسعار وقلة عدد السكان وانعدام الهجرة من الريف ... إلخ مستريحاً لهذه التبريرات ومتناسياً أساس المشكلة وهى أنه فى الماضى رغم توافر المساكن كان البيت الواحد يضم عدة أسر متفرعة كلها من العائلة الواحدة فالأبناء يتزوجون ويعيش كل منهم فى نفس البيت فيعيش أبناء العمومة وأبناء الخئولة كإخوة فتجد البيت الواحد يضم ثلاثة أجيال الجد والابن والحفيد ، ولم يكن أحد يشكو لأن هذه كانت هى القاعدة وما عداها هى الشواذ . ولم يكن هناك من يتبرم لأن الكل كان محتاجاً لهذه المؤانسة والمعاونة فرغم إن أعمال البيت كانت شاقة قبل اختراع الأجهزة الحديثة ، إلا أن الكثرة والتعاون كانا هما السبيل الوحيد للتغلب على مشقة أى أعمال منزلية .

كما أن الأعباء النفسية على أى إنسان كانت تتلاشى بمجرد وجود إنسان آخر معه يبثه شكواه ويلتمس عنده المودة والتعاطف والمؤازرة . لم تكن هناك شكوى من الاغتراب النفسى الذى يعانى منه هذا الجيل المظلوم أو الظالم لنفسه فاليوم كل زوجة تطلب لنفسها شقة مستقلة وحياة مستقلة وميزانية مستقلة . تلك الشقة المتخمة بالأجهزة الكهربائية والأثاث الباهظ التكاليف وتلك الميزانية المرهقة بأعباء الديون وتسديد الأقساط لكل هذه المقتنيات ناهيك عن تكاليف المعيشة المنفردة واحتياجاتها المتزايدة . فالفكرة المسيطرة على كل العقول هى استقلال الزوجين بسكن خاص بهما بغير شريك أو منازع ولذلك نرى معارضة كبيرة من الآباء والأمهات فى تزويج أبنائهم ما لم تضطرهم الظروف إلى ذلك اضطراراً .

فدائماً تكون هناك مقاومة من هؤلاء الأباء والأمهات لطرح فكرة زواج الأبناء حيث يلعب العامل النفسى الكثير فى ذلك المجال فالمقاومة قد تكون لتجنب الاعتراف

بانقضاء سنين العمر وانتهاء دورهما فى تنشئة الابن أو الابنة أو الخوف من الافتراق عنهما فزواج الأبناء يعد نهاية مرحلة مليئة بالخصب وبداية مرحلة أخرى يشعر فيهاالأب أو الأم أنه صار كمّا مهملا بلا هدف وبلا دور لم يعد مسئولاً عن أحد ، لم يعد قادراً على العطاء تلاشت من حوله الأضواء . أصبح وجوده هامشياً لا ينفع ولا يضر .

إنه إحساس مرير غاية المرارة أن يجد الإنسان نفسه مكرهاً على الإذعان لقانون الزمن والحياة .

ومناهضة تزويج الأبناء تزداد حدة وشدة مع كل ابن أو ابنة حتى تصل إلى أشدها فى تزويج الابن أو البنت الأخيرة فيكون التشبث فى غاية الشدة ــ خاصة إذا كان أحد الأبوين قد رحل من الدنيا ــ فتكون عملية إقناع الأب أو الأم صعبة للغاية حتى أن البعض من هؤلاء الآباء أو الأمهات يقع أحياناً فريسة أمراض متناهية فى الشدة رغم أن السبب الكامن وراء هذه الأمراض غالباً ما يكون نفسياً بحتاً . حتى أن الابن أو الابنة قد تضطرهم هذه الظروف إلى العزوف عن الزواج فترة طويلة بلا داع .

وكثيراً ما يفشل زواج الابن الأصغر بعد كل هذه الملابسات حيث إن مجال الاختيار أمامه يكون ضيقاً ومحدوداً وعلى الأكثر يختار بنفسه الزوجة دون دراية كافية وقد يوافق على أيّة زوجة تقبل العيش مع والدته أو والده دون النظر إلى أى معايير أخرى فيكتشف أن الزوجة مليئة بالعيوب على عكس إخوته الكبار الذين كان مجال الاختيار أمامهم رحباً بل كثيراً ما ساعد الآباء أبناءهم فى اختيار الزوجات بنظرتهم الموضوعية الشمولية وخبراتهم الواسعة فى الحياة فيظل هذا الابن الأصغر نادبا حظه ناقماً على كل هذه الظروف التى دفعته لتقديم أى تضحيات إرضاء لأبويه .

نفس الشيء الذى يحدث مع الابن الأصغر قد يحدث مع الابنة الصغرى فقد تضحى بفرص طيبة فى الزواج إرضاء لأحد أبويها حتى تضطر اضطراراً لقبول أى زوج يقبل مبدأ عدم تركها لمنزل أبويها .

وكثيراً ما تجرى حولنا وداخل مجتمعنا صور عديدة لهذه التضحيات ونلمسها بأنفسنا ونحكى بها لكننا نكتفى بمجرد الرؤية وتناقل القصص والروايات ونمطّ شفتينا

إما إشفاقاً وإما دهشة دون أن نطرح أى حلول لهذه المشكلات المأساوية أو حتى دون السؤال عن المسبب الأصلى .

إنها النظرة التشككية لكل زوج وزوجة تجاه أهل شريك حياته . فالكل يفترض مقدماً أن الحياة معهما ستكون درباً من الدروب الشائكة الوعرة المليئة بالمتاعب والجراح وسيضيق عليها مجال حرية الحركة وسيقوض استقلالهما الذاتى فى حياتهما .

إن حلم كل فتاة أن يكون لها بيت زوجية مستقل تعتبره مملكتها الدائمة التى تعيش فيها حياتها المستقلة تماماً عن عجلة حياة أهل زوجها وأهلها وتكافح كثيراً من أجل هذا الهدف بل إنها قد تحمّل زوجها مالا يطيق من أجل تحقيق هذا الهدف الأثير لديها وكلما زارت إحدى صديقاتها المتزوجات حديثاً وقامت بمعاينة وتفحص أركان شقتها بما فيها من أثاث وتحف وأجهزة باهظة الثمن كلما ازدادت هذه الزوجة عتواً مع (عريسها) محملة إياه فوق طاقته حتى ينوء كاهله من أعباء هذا الزواج كى يحقق لها تلك الصورة المرتسمة فى مخيلتها عن شقة الزوجية .

فتاة بهذه الصفة هل يسهل عليها تقبل فكرة أن تعيش مع حماتها إكراماً لسنها واعترافاً بجميلها ومؤانسة لوحدتها بعد أداء رسالتها ؟!

رأيت عشرات الحالات من هذا النوع كان يتم فيها فصم الزوجية بالطلاق قبل الدخول بين الزوجين باستثناء حالات قليلة كانت توجيهاتى فيها تجد صداها عند بعض الفتيات فكان بعضهن يفضل خوض التجربة بما فيها من مشقة على تحمل تجربة الطلاق وكانت النتيجة ولله الحمد فى معظم الحالات طيبة وعِشْنَ حياة سعيدة بجانب حمواتهن اللواتى اعتبرنهن أمهات أو خالات أو عمات لهن . ولو أننى أعزى نجاح هؤلاء الفتيات إلى سبب آخر هو المرونة فى التعامل وديناميكية الحركة السلوكية وإيجابية المعايشة بالإضافة إلى الشجاعة فى تغيير التركيب النفسى الذى ساعد على إزالة اللبس وسد الثغرات وتضييق الفجوات .

فتاة بهذه العقلية الراجحة المتفتحة حينما تعدنى بأنها ستخوض التجربة وتعيش مع حماتها لا يمكن أن يساورنى الشك أبداً فى نجاحها فى هذه التجربة .

عقلية من هذا الطراز طالما أنها تملك شجاعة تحمّل خوض التجربة لا شك أنها تملك أيضاً المرونة والمثابرة الكافية للتواؤم والتأقلم مع أى عقلية أخرى ودائماً

تنجح .

أما بالنسبة لبعض الفتيات اللواتى يرفضن تماماً فكرة خوض تجربة العيش مع الحماة فإنهن ينقسمن إلى عدة اتجاهات وعدة آراء منها :

الاتجاه الأول : تكون الفتاة متأثرة بضغوط أفراد أسرتها وتشددهم وآرائهم المليئة بالمخاوف والتى غالباً ما تكون على غير أساس موضوعى بالمرة ، وفى هذه الحالة أكتشف أن الفتاة بلا رأى مستقل وبلا إرادة حرة تردد عن غير وعى منها آراء أسرتها من أنها ستعيش فى بيت حماتها كخادمة لها وأنها بذلك ستحرم من حياة زوجية مستقلة ولن تكون لها كلمة أو رأى بجانب رأى حماتها التى ستتولى حتماً دفة الأمور فى البيت فإذا حاولت الاعتراض على نظام الحياة فى بيت حماتها سيكون مصيرها الطرد من المنزل كأيِّةِ خادمة تسيء إلى مخدوميها . تظل الفتاة المسكينة تتشبع بهذه الآراء من أسرتها وتظل تتأرجح بين رغبة أهلها ورغبة خاطبها أو زوجها فهى متمسكة برأى أسرتها وفى نفس الوقت تحاول جاهدة الضغط على زوجها ليسكن معها بعيداً عن والدته رغم أنها تدرك جيداً أن مطلبها غير عادل وأنه من الصعب جداً ترك هذه الأم تقاسى الوحدة فى هذه الشقة بلا مؤنس ولا جليس ، فإذا لم تصل الفتاة فى محاولاتها إلى شىء تعلن أنها تفضل الطلاق على العيش مع والدة زوجها وفى هذه الحالة كثيراً ما تذهب محاولاتنا للإصلاح بينهما أدراج الرياح لأن الضغوط الهدامة التى مورست على هذه الفتاة رسخت فى ذهنها بشاعة الحياة مع الحماة وحجم الضياع الذى ستعيش فيه فى بيتها .

بلا شك لو تم هذا الزواج سيكون هشاً للغاية . فماذا ينتظر من زوجة تبدأ حياتها الزوجية فى بيت دخلته من أجل إثبات حقيقة واحدة هى إنها لم تدخل هذا البيت من أجل إجابة مطالب حماتها .

إن مجرد بدء حياتها بهذا الوهم سيجعلها دائماً متحفزة ومتنمرة من أجل الانقضاض على حماتها فى أقرب فرصة أو عند أى سوء فهم وسيجعلها دائماً مشدودة الأعصاب وسيظل الجو النفسى فى البيت دائم التكهرب بلا داع مهما كانت حماتها تتحلى بالصبر وسعة الصدر . وقد رأيت كثيراً من الصور من هذا النمط .

الاتجاه الثانى : يدعم هذا الاتجاه ما تلاحظه الفتاة على خاطبها أو على زوجها

بعد عقد القران من احترامه الشديد لأمه وتوقيره لها فتستشيط الفتاة سخطاً واحتجاجاً على زوجها لأن هذا الاحترام الشديد للأم معناه الإذعان لقراراتها والخضوع لإرادتها وقيادتها . وهنا تتخذ الفتاة فوراً موقفاً معادياً من الحماة وتحرض الزوج للتمرد على أمه . وهذه النوعية من الزوجات لا تستطيع غالباً التفرقة بين الاحترام الواجب للأم وبين الخضوع والإذعان لأوامرها أياً كانت .

وهذا العجز عن التمييز يتأتى من زوجات لم يعرفن فى بيوت آبائهن شيئاً من توقير الصغير للكبير وتقديس الأب والأم والجد والجدة وهذه صورة التربية الحديثة فى معظم البيوت حالياً فلا غرو أن تصطدم هذه الزوجة بهذا النمط من التربية وتعتبره وضعاً شاذاً ، أو قل إن عقلها لا يصل إلى هذا التصور الذى تعتبره من سمات القرون البعيدة .

وبطبيعة الحال إنسانة لا يمكنها التفرقة بين الاحترام والخنوع تحتاج لدلائل وبراهين غير متاحة لتقتنع بأنها يمكن أن تعيش فى سلام مع حماتها .

الاتجاه الثالث : صاحبات هذا الاتجاه هن نوعية لا تعرف سوى أن الزواج هو استئثار الزوجة بزوجها وامتلاكه بالكامل ، ومنتهى أملها أن تقطع كل خيوط الاتصال بينه وبين جميع من حوله ليكون خالصاً لها وحدها . ورغم أننى لمست فى الكثيرات منهن ذكاء لا بأس به — على عكس توقعاتى — إلا أن هذا الذكاء لم يساعدهن على استنتاج ما يمكن أن تنتهى إليه هذه النظرة للزواج وهذه النوعية تنظر إلى عقد الزواج وكأنه عقد امتلاك أبدى لا يمكن الرجوع فيه أعطى لكل من الزوجين حق الاستحواذ على الآخر والاستقلال التام بزوجيتهما عن كل من حولهما . وكثيراً ما يبدو هذا واضحاً من استهانة هذه الزوجة بكل ما يقال أمامها فى مجلس الصلح رغم أنها موقنة تماماً أنها فى مكتب المأذون وأن الأمر صار جداً ، فإما تجاوز الخلاف واستمرار الحياة الزوجية وإما الطلاق ، ولذلك أراها على تعنتها بغير اكتراث إلى أن تصدم بأن القرار النهائى للمجلس هو الطلاق .

الاتجاه الرابع : هى تلك الزوجة المتزوجة من زوج مدلل أصلاً من والدته ، ذلك التدليل الذى أفسد حياته وتلاحظ الزوجة أنه يتعامل معها فى غياب والدته بشخصية وفى وجودها بشخصية مختلفة تماماً الأمر الذى يخيف هذه الفتاة ويقلقها على مستقبل علاقتها بزوجها . فهى تعرف جيداً أن كل ابن يتمنى أن تكون زوجته

صورة من أمه مثلما تتمنى كل ابنة أن يكون زوجها صورة من أبيها وتدرك جيداً أنها لن تستطيع أن تعطى زوجها هذا التدليل الذى يلقاه من والدته لأنه فى كل الأحوال لابد من أن يكون مسئولاً عن حياته وحياة زوجته وحياة أسرة بأكملها وكل هذا لا يتوفر فى ظل الإقامة المستمرة مع والدته ولذلك أجد هذه الزوجة دائمة التشبث بعدم الإقامة مع حماتها وتفضل الانفصال على ذلك .

وبشكل عام ثبت لى من خلال الوقائع العملية كلها أن الزوج المدلل لا يصلح للزواج ودائماً تكون حياته مفعمه بالاضطربات وعدم الاستقرار وينسحب هذا على أولاده الصغار وعلى الدوام يكون هذا الزوج المدلل غير قادر على تقيم حياته الزوجية أو تسيير دفة الأمور فيها .

ومن كثرة ما شاهدت من صراعات زوجية بشعة يكون بطلها دائماً ذلك الزوج المدلل من أمه فقد أصبحت أكره كلمة (تدليل) كراهية شديدة . فهذا التدليل هو أساس الكوارث التى تقع فى حياة أى زوج أو زوجة فكم من حالات انفصال للأزواج جاءت تتويجاً لمآس مروعة وصلت ببعض الزوجات إلى حد تفضيل الموت على هذه الحياة .

فبكل الأسف يكون وضع الزوج المدلل من أمه أصعب بكثير من وضع الزوجة المدللة من أمها ، فأم الزوج هنا تفرض وصايتها بالكامل على البيت كله (الزوج والزوجة والأولاد) وحينما يسمح هو بهذا النوع من الوصاية عليه من والدته فى بيتها لا يقدر على رفع هذه الوصاية عنه بعد ذلك إذا أقام فى مسكن مستقل مع زوجته وهنا تأخذ المشكلة أبعادها الحقيقية ويحتدم الصراع بين الزوجين .

فمبدأ المشاركة من الأم لابنها وزوجته المقيمين معها سواء المشاركة فى الرأى أو فى القرارات قد يعد مقبولاً باعتبارها شريكاً له كامل الأهلية لكن فرض الوصاية على الزوجين غير مقبول لا فى بيت الحماة من خلال الإقامة معهما ولا فى بيت الزوجية المستقل .

تلك هى الاتجاهات التى تشكل حسبما رأيت طريقة تفكير الفتيات وتدفعهن لرفض الإقامة مع الحماة وكما نرى أن منها أفكاراً تعتمد على التحليل المنطقى والتفهم الصحيح الواعى للأمور . ومنها أفكار تجريدية ثابتة بثبات المؤثر من خلال العامل التربوى أو التأثير الناشىء عن التصور القديم لشكل الحماة وطريقة تعاملها مع زوجة

ابنها .

كما أن منهن من كان حضورهن مع أزواجهن إلى مكتبي هو نوع من الضغط على الأزواج كورقة أخيرة تلعب بها والهدف طبعاً واضح هو إرغام الزوج على التراجع عن فكرة الإقامة مع والدته ، إلا أن هذه الضغوط مغامرة غير ممكن التنبؤ بنتيجتها فكانت أحياناً تزيد عن حدها فتنقلب إلى ضدها وأحياناً كانت تنتهي بقبول الزوجة العيش مع حماتها لأنه لا بديل آخر . فمنها الزوجة التي تخشى الطلاق ونتائجه ومنها التي استجابت توفيراً للإنفاق على بيت آخر ومنها التي قبلت لأنها ستحتاج حماتها مستقبلاً بعد إنجاب الأطفال ومنها التي تحب زوجها لكنها رضخت على أن تكون الإقامة مشروطة ومؤقته ومنها من تحصل على قائمة تنازلات من الزوج حتى أنني لا أشك في أنها افتعلت هذه الضجة من أجل هذه التنازلات والحصول على مزايا ومكتسبات نسيت أو عجزت عن الحصول عليها قبل ذلك وجاءت الفرصة لاستدراك ما فاتها .

موقف الأزواج :

يختلف كثيراً موقف الأزواج عن نظيره بالنسبة للزوجات حيث يبدى الأزواج مرونة أكبر فى هذا الشأن ، ربما يكون السبب هو إحساس الزوج بأن مجال التراجع أمامه أكثر اتساعاً ومفتوح دائماً متى لم يجد من حماته ما يريحه من معاملة . ذلك فى الوقت الذى يكون فيه هذا المجال شبه مغلق أمام الزوجة حيث إن إقامة الزوجة مع حماتها يجيء نتيجة ظروف حتمية وقرارات نهائية ، فهى تتحمل الضغط النفسى بشكل أكبر ، ربما بسبب إدراكها لأهمية هذا الواجب الذى تعتبره مسألة مصيرية تتعلق بالحفاظ على كيان أسرتها وبيتها خاصة وأن قرار الانفراد بسكن مستقل يقع على عاتق الزوج .

فقبول الزوج بالإقامة مع حماته يأتى اختيارياً فى الأغلب ونتيجة إغراءات يمكن تماماً الاستغناء عنها عند الضرورة . فالزوج يضع كبرياءه فى المقام الأول ثم يليه بعد ذلك كافة المصالح الأخرى .

إن الشباب الخاطب أو عاقد القران لا يتصور نفسه مقيماً مع حماته (أو حماه) إلا فى حالات محددة ، كأن يكون عاجزاً عجزاً بيّناً عن إيجاد مسكن زوجية مستقل ويعرف جيداً أنه لن يقدر فى المستقبل القريب على تدبير هذا المسكن نتيجة قصور إمكاناته ، والأمل ضعيف فى تحسن هذا الموقف . أو يكون معتمداً فى شطر هام من احتياجات حياته الزوجية على مرتب زوجته فى وقت يتصادف فيه أن تكون زوجته هى المسئولة عن والدتها مادياً تلبية لاحتياجاتها من غذاء وسكن وأدوية وعلاج ... إلخ . هنا يقبل الزوج بضم البيتين فى بيت واحد بميزانية توفيراً لهذه النفقات المزدوجة .

كذلك هناك أحوال ترتد أيضاً إلى الاعتماد على مشاركة الزوجة براتبها فى مصاريف البيت ويعرف الشاب مدى أهمية الحماة إذا ما أنجب أطفالاً فى هذه الظروف لأنهم سيحتاجون حتماً لدار حضانة أو مربية مقيمة أو حتى جليسة معهم فترة غياب الأم فى عملها وهذا الترف لا يقدران عليه براتبهما معاً وبدلاً من تأجيل

الإنجاب عدة سنوات تجيء الإقامة مع الحماة ضرورية خاصة إذا كان سكن الزوجين نائياً عن سكن الحماة .

تلك هي الأسباب التي رأيتها تحرك الشاب للموافقة على الإقامة مع حماته ولقد رتبتها بحسب أهميتها وأما ماعدا ذلك من أسباب — رغم تكرارها — فليست تستحق في نظري وضعها تحت الدراسة .

وإذا كان البعض يعتقد أن أي شاب سيسعده العرض بالإقامة مع حماته باعتبار أن هذا العرض فرصة لا تعوض فإن الشاب نفسه — مع تحمسه للفكرة — يحتاج دائماً لبعض الوقت لدراسة هذا العرض دراسة وافية وفي النهاية قد لايقبل هذه الفكرة لأنه وإن كانت مغرياتها كثيرة إلا أن محاذيرها أكثر .

فأهم ما يخشاه الشاب في اعتقادي أن تكون حماته ذات شخصية قوية مؤثرة تفرض عليه وعلى زوجته وصايتها وتقيد حريته في ممارسة حياته الزوجية بالشكل الذي يرغبه . فهذه النقطة تظل تؤرقه ليالي وأياماً لأن تدخلها في حياته الزوجية ليس مرحلة مؤقتة وتنتهي لكنه سيتصاعد يوماً بعد يوم حتى يجد في يوم من الأيام أن دفة سير الأمور الخاصة به وبزوجته صارت كلها في يدها في وقت لايعد فيه له أي حق في أن يبدي امتعاضاً أو اعتراضاً بعد أن وافق من البداية على وضع نفسه وزوجته تحت هذا الانتداب .

وحين تسأل الشاب من هؤلاء كيف يفضّل الطلاق قبل بدء حياته الزوجية على خوض التجربة بالإقامة مع حماته تجد الرد على هذا السؤال جاهزاً حيث إنّه لمس من خلال التعاملات الأولى معها أنها ذات شخصية مسيطرة ولا يستطيع أن يقيم معها وهي بهذا الشكل أهل للتسلط وفرض الوصاية عليه ، فكانت حصيلة ملاحظاته بعد عدة لقاءات معها هي رسوخ هذا الاعتقاد في نفسه . وأحياناً لا يلتفت الشاب لهذا العيب أو يمكنه اكتشافه بنفسه لكن هناك من نبهه ممن حوله بفعل خبراتهم وبعيداً عن عواطفه . ولهم الحق في هذا فقد تكون الحماة بالفعل كذلك .

لكن على الجانب الآخر هناك من تكون تخوفاته من الإقامة مع حماته بغير أساس موضوعي كأن يكون قد خرج من تجربة مماثلة مع حماة متسلطة في زواج سابق له وقاسى طويلاً في محاولات مقاومة استقطابها له . أو قد يكون بغير تجربة شخصية لكنه عايش هذه التجربة من خلال شقيق أو صديق له وقع في براثن حماة من ذلك

النوع السيىء جعلته يأخذ على عاتقه مقاومة أيّة فكرة من هذا القبيل . وهو تعميم يخلق مشكلة دائمة لهذا الشاب إذا لم تكن لديه إمكانات الانفراد بحياة وسكن مستقلين .

كما يندرج أيضاً ضمن هذه الفئة كل أولئك الذين تأثروا بوسائل الإعلام التى شوّهت على مدى السنوات الطوال الشكل العام لأيّة حماة من جهة الزوج أو من جهة الزوجة والتى فى الواقع شكلت أكبر قدر من المخاوف لدى الأزواج والزوجات وجعلتهم بحق فى غير حاجة لأى مشاهدات واقعية على الطبيعة . فتجد الشاب من هؤلاء ما إن تلتقط أذنه لأيّة كلمة من حماته فإنه يفسرها فوراً بسوء نية ويبنى آراء كثيرة بغير إنصاف بناءً على هذا التفسير لمجرد كلمة ربما كان معناها مختلفاً أو كان مدلولها عكس فكرته نفسها ، وهو معذور لأنه كشاب صغير لاتزال خبرته فى التعامل أو الاحتكاك قليلة وبالتالى تكون أحكامه ناقصة ومتسرعة وتعوزها الدقة .

هذا طبعاً بالإضافة إلى الخلفية التى لديه عن الصورة العامة للحماة التى تسهم بدور أكثر فاعلية فى جعل الرؤية كلها قاتمة وهو هنا يحتاج للصبر عليه ومناقشته فى أفكاره وتحليلاته بتمهل وتؤدة فربما انتهت المناقشة معه بتغيير قراره أو نظرته تماماً .

أما السبب الذى تشارك فيه الأمهات بالتأثير على نظرة أبنائهم بغير وعي تماماً ولا يدركن خطورة هذا التأثير إلا بعد الوقوع فى هذه التجربة فهو سلوك الأمهات تجاه زوجات وأزواج أولادهن وهو سلوك بالقطع مختلف ، فالتصرف كأم شيء والتصرف كحماة شيء آخر .

وهناك مقولة شهيرة سمعناها كثيراً هى أن (خير الأمهات هن شر الحموات) نعم هذا صحيح فأنثى النّمر أم حنون وأنثى الأسد أم حنون لكن حنانها لأبنائها فقط أما ماعدا ذلك فهى فى الصيد والقنص أشرس ماتكون .

وحين يرى الشاب أو الفتاة أمه الوادعة الرقيقة معه تتعامل مع زوج أخته بخشونة وصعوبة وتملأ حياته بالمنغصات وهى تعتقد أنها بذلك قد نجحت وظهرت وانتصرت فكيف تكون نظرة هذا الشاب بعد ذلك للحماة ؟!

الأم تحارب زوج ابنتها لتنتصر عليه حتى تعيش نشوة الانتصار بغير أن تعرف مدى تغلغل هذه المفاهيم داخل نفوس أولادها وما تحدثه من ترسبات سيئة فيها فهى

وإن كانت تفعل ذلك فى زوج ابنتها فإنها تصيب نفسية الابن بشروخ يصعب إصلاحها .

ولهذا فمناقشة الابن فى تلك المفاهيم لا يجدى كثيراً بعد أن استقرت هذه القناعات فى أعماق نفسه . لكن الكلام هنا يجب أن يوجه للأم فنقول لها :

حاولى أن توفقى ما استطعت بين وضعك كأم ووضعك كحماة ولا تجعلى أمومتك جزءاً من أنانيتك فحين تنجحين فى تخليص أمومتك من الأنانية ستشعرين بسعادة أكبر لأنك ستنظرين لزوج ابنتك أو زوجة ابنك نظرة أم لا نظرة حماة فقط . ومهما حققت من نجاحات فى المدى القريب ضدهم فهى نجاحات محكوم عليها بالإعدام لأنها قصيرة النظر فانظرى أبعد من ذلك بكثير .

انظرى نظرة شمولية واسعة لمستقبل أولادك إن كنت تحبينهم حقاً لأن حب الأم هو الحب الوحيد النقى بدون أغراض وهو الحب الخالد فى نفوس كل بنى الإنسان .

إن الترجمة العربية لكلمة الحماة عند الشعب الفرنسى هى (الأم الجميلة) . ألا تحبين أن تنالى هذا اللقب البالغ الروعة ؟

(٧) الأطماع وزواج المنفعة

فى هذا الفصل أعالج موضوعاً مختلفاً بعض الشيء عن موضوع الغش فى الزواج لكنه يتكامل معه فى نواح كثيرة أكاد أجزم ــ لفرط التشابه بينهما فى بعض الأحيان ــ أن كلا منهما يعتبر امتداداً للآخر فإن كان الغش يعتمد على إخفاء الحقيقة عن الطرف الآخر وأحياناً قلب الحقائق تماماً إلى أن يتم الزواج ثم لا يهم بعدها أن تنكشف كل الأمور فإن تحكّم الأطماع والسعى وراء زواج المنفعة الذاتية هو نوع آخر من استغلال هذه النيات ولكنه بكل أسف استغلال مقنن ومعترف به من المجتمع ولا يقع تحت طائلة القانون أو حتى ازدراء المجتمع حتى صار عند البعض تقليداً متبعاً وجزءاً لا يتجزأ من ممارساتهم فى أى زواج يبدءون فيه .

وإزاء التراجع المؤسف والمستمر يوماً بعد يوم للقيم المعنوية السامية أمام سيادة المادة وعدم التواؤم بين كثرة الاحتياجات وقلة الإمكانات اندفع الكثيرون للتهالك على أيّة فرصة من هذا النوع سواء بالغش أو بالكذب أو بالتحايل بل إننى لا أبالغ إذا قلت إن هناك من اتخذ أسلوب بث الدسائس بين الخاطب وخطيبته أو بين الزوج وزوجته لإفساد العلاقة بينهما حتى تنفصم عراها من أجل الاستحواذ على واحد منهما .

يؤسفنى أن تمر أمامى قصص كثيرة الواقع فيها أغرب من الخيال فرغم أنها مؤامرات مدروسة فى أغلب الأحيان إلا أنها تدل فى النهاية على تفاهة عقليات مدبريها .

فهذه جارة تسرق لابنتها عريس ابنة جيرانها بنفس العمارة ويفشل الزواج بنفس السرعة التى تم بها .

وهذه فتاة تهرب مع خطيب أختها ويتزوجان فى شقة مفروشة وبعد نفاد المؤن تماماً بعد امتناع أسرة الشاب عن أى إمدادات له تعود الفتاة لأسرتها نادمة بعد أن

تقطعت تماماً أواصر الإنسانية بينها وبين أختها ولم تحظ من هذه التجربة بغير وثيقة طلاق ودرس يكفيها العمر كله حسرة وندماً .

وهذه فتاة يعقد قرانها على شاب أعجبت به تماماً ثم فجأة يظهر أمامها عريس يفوق الأول بمراحل فى الإمكانات المادية الهائلة فتحيل حياة عريسها إلى (دراما) مأساوية حتى حصلت على طلاق سريع بدون إبداء المبرر ولكنها خسرت كلا العريسين ولم تجن إلا الحسرة والندم ووثيقة الطلاق .

وهذا عامل بسيط يفسخ خطبة ابنته ليزوجها من ثرى عربى اقتادها إلى بلده ليتعامل معها كأرخص أنواع السلع فتهرب بأعجوبة لا يصدقها العقل ولا يمكنها رفع دعوى أمام المحكمة لطلب الطلاق لأن البحث جار عنها بتهم مختلفة ومتنوعة لفّقها لها هذا الزوج الثرى .

تاجر ثرى ثراء فاحشاً يسخّر أمواله فى استمالة عائلة عريقة ويزوجونه ابنتهم الجامعية الحسناء من أجل أن يتلذذ بإذلالها بأمواله ويتفاخر أمام ضعاف النفوس أمثاله بأنه شخصية مهمة واستطاع بأمواله شراء الجمال والعائلة العريقة والشهادة . ولم تحتمل الزوجة هذا الإذلال كثيراً ولم تقدر على احتمال إنسان جاهل لا يريد زوجة ولا يجيد فى الوقت نفسه سوى لغة الفلوس وانفجرت الأوضاع كلها .

لو أخذت أسرد كل الأمثلة التى تعرض لى فى هذا الصدد فلن استطيع أن أخصص لها فصلاً واحداً من كتاب كما أفعل هنا .

إن هناك دقائق جانبية وتفاصيل هامشية لا نلتفت إليها عادة لو أمعنا النظر فيها ووضعناها فى دائرة اهتمامنا ودراستنا لأمكننا استقراء الأحداث الهامة ربما قبل وقوعها بل لأمكننا وضع منهاج دقيق نسير عليه فى حل غالبية المشكلات الزوجية فإذا كان الزواج قائماً على الأطماع والانتفاع الذاتى فهو زواج وقتى لا جدال فى هذا وإذا استمر فإلى حين ثم يزول بزوال المؤثر لأنه بنى أصلاً على عنصر الأخذ وبالتالى فلا مجال فيه للعطاء فالعطاء هنا غير وارد إلا بالقدر الذى يخدم الإبقاء على هذا الزواج النفعى وحسب . وعلى ذلك فالإخلاص هنا مرهون بالأخذ ولقد سميته إخلاصاً تجاوزاً فهو فى النهاية ليس إلا خداعاً لا ينطلى إلا على السذج .

إن الإخلاص بمعناه السامى هو الحصن القوى الذى يتحصن به أى زواج إذا

كان إخلاصاً حقيقياً ونابعاً من القلب . إن أحدا لا يستفيد من أخطاء أحد إلا نادراً وربما مصادفة .. هذا الاعتقاد يزداد عندى رسوخاً يوماً بعد يوم فرغم أن هذا التقدم المطرد لدى المجتمع فى مستوى التعليم والذكاء واكتساب الخبرات خاصة مع وجود أجهزة الإعلام من (راديو) و (تليفزيون) ... إلخ فى كل بيت إلا أننى أكتشف سقطات مدوية من أناس ذوى مستويات علمية رفيعة وتزداد النفعية كل يوم رسوخاً وتتسع الأطماع والأنانيات وحب الذات لتشمل جوانب فى حياتنا كانت إلى عهد قريب بعيدة عن هذا المنال .

فحينما تغزوا النفعية أو الوصولية عقل الشباب حتى تصل به إلى أن يجعل منها أساساً يبنى عليه زواجه ومستقبله فأية كارثة تنتظر هذا الشباب ؟!

إنه غياب الوازع الدينى والأخلاقى بل وغياب التوجيه المطلوب من الكبار ذوى الخبرة . لكن ماذا يمكن للإنسان أن يقول إذا كان الأهل المسئولون عن هذا التوجيه هم أنفسهم الذين تستهويهم المظاهر البراقة وهم الذين يتخذون القرارات الخاطئة فى حياة أبنائهم المقبلين على الزواج .

ماذا يفعل الابن أو البنت وكل منهما يرى القدوة أمامه تغير جلدها مع كل موقف جديد وتتلون بكل الألوان وتتشكل بشكل مختلف مع كل حدث فلا تثبت على مبدأ ولا تسير على نهج واحد . هنا يترسَّخ فى أعماق الشاب أو الفتاة الإحساس بالانتهازية .

قد تسعد الفتاة بزواجها من رجل ثرى وقد تشعر أن طموحاتها وأحلامها تحققت وقد تنسى مساوئه العديدة بين رغد العيش الذى تعيش فيه لكنها أبداً لا تحترم أهلها مهما حاولت إخفاء هذه المشاعر فهى فى النهاية تعرف بينها وبين نفسها أنها بيعت لمن يملك أكثر . فهى صفقة وليست زواجاً بالمعنى الحقيقى إنها تحاول أمام زميلاتها أو قريباتها أن تبدو فى سعادة كى تجلب غبطتهن وحسدهن وربما شعور دفين داخلها بالانتقام منهن كى يقعوا فى الخطأ بدلاً من أن يتندروا بخطئها هى وبطبيعة الحال لا يستفيد أحد إلا نادراً من أخطاء الآخر فتتجه كل واحدة من زميلاتها أو قريباتها إلى نهج هذا الخط . وهكذا تنتقل هذه العدوى من بيت لآخر شيئاً فشيئاً حتى صار المجتمع كله مضطرباً بين مؤيد ومعارض بين متمسك بأهداب القيم الرفيعة وطامح فى تحقيق أطماعه وتطلعاته بسرعة البرق ضارباً بالأخلاق عُرض الحائط

وساحقاً المبادىء السامية تحت أقدامه .

فى مناقشة هادئة مع إحدى الزوجات الصغيرات جداً وكان زواجها قد فشل بسبب هذه الأطماع التى بنى عليها وجدتها تحمل خبرات أليمة من هذا الزواج تعتصر القلب ، ووجدت عند هذه الشابة الصغيرة حكمة اكتسبتها من هذا الزواج لا يوجد جزء صغير منها عند الجامعيات والمثقفات لكن ما أحزننى أن هذه الخبرة لم تلعب دوراً أساسياً فى نظرتها للمستقبل ذلك أنها تشعر داخلها باحتقار شديد لأهلها ولكن هذه الاحتجاجات المكبوتة داخل نفسها لم تغير كثيراً من تركيبها النفسى فهى أصلاً لم تتَرب على القيم الأخلاقية التى يمكنها الرجوع إليها والتحصن بها فهى لا تعرف غير أن الدنيا غابة يأكل القادر فيها الضعيف وأن المادة هى السيد المهاب فى هذه الحياة وأن شرف الإنسان هو ماله وإذا كان هناك ما يعتز به الإنسان فهو قدرته على أخذ ما فى يد الآخرين .

إلى هذا الحد يكون الإنسان مشوها من داخله ؟!.. إنها أحوال تدعو للأسف ومع ذلك فهناك متعلمات مثقفات لا تقل نفعية وانتهازية عن هذه الزوجة البسيطة وكثيرات منهن تنظرن إلى الزواج على أنه صفقة تجارية إما رابحة أو خاسرة ، وهذا يتوقف على كيفية التعامل مع هذه الصفقة .

شيء مؤسف أن ترى فتاة ناقمة ثائرة على عريسها بعد أن كانت تطير فرحاً برؤيته ثم يكتشف بعد أن يطلقها أن السبب هو ظهور شخص آخر جاهز بإمكاناته للزواج منها ويدفعها من حولها لهذا فلا أحد يعترض ولاأحديلومها أو يزجرها أو يؤنبها . لاشيء من هذا.

لقد وجهت سؤالاً لبعض الشبان وأحسست من إجاباتهم بمدى فداحة خطأ البنت بالتفريط فى زوج لمجرد ظهور شخص آخر أكثر إمكانات منه .

وهذا السؤال هو . ماذا تفعل إذا عثرت على الفتاة التى تحلم بها ثم اكتشفت أنها مخطوبة أو معقود قرانها على شاب لا يملك إمكاناتك المادية ثم طلبت هذه الفتاة منك مهلة لفسخ خطبتها أو الحصول على الطلاق لتقترن بك ؟

ـــ أجاب أحدهم بأنه يرفض فورا هذه الزوجة لأنه لا يقبل بأى شكل زواجا يقوم على طلاق زوجة من زوجها من أجل زوج آخر .

ــ وأجاب آخر بأنه سيبتعد عنها فى هذه الحالة فإذا طلقت من زوجها لأسباب أخرى ليس هو واحداً منها فإنه سيعيد حساباته .

ــ وأجاب ثالث بأنه لا يضع فى اعتباراته أصلاً الزواج من أى مطلقة ولم يبد أسباباً .

حتى الانتهازى منهم أجابنى بأنه سيتزوجها فترة لإرضاء غروره ونزوته ثم يطلقها لأنها أيضاً انتهازية ويسهل عليها التفريط فيه إذا لاحت لها فرصة أفضل .

هذه الإجابات بقدر ما طمأنتنى بقدر ما أثارت قلقى لأن هناك نسبة لا يستهان بها من المشكلات الزوجية التى أتعامل معها تلعب فيها الأطماع المادية دوراً كبيراً ، كما أن هذا يعطينا مؤشراً واضحاً عن سبب كثرة هذه الخلافات وتناميها وتعاظمها يوماً بعد يوم فما دامت هذه المشكلات قائمة على الأطماع سيظل الحل فيها مستحيلاً كما سيظل الوفاق فيها معدوماً . إن الزواج عموماً كما أتصور يندرج تحت ثلاثة أنواع :

زواج العاطفة والزواج الموضوعى وزواج المنفعة . ولنتناول كل واحد منها على حدة .

١ ــ زواج العاطفة : وهو نادراً ما ينجح النجاح المتوقع منه لأنه ينشأ تلقائياً فى أى ظروف وبأى معايير فهو لا يعترف بالفوارق الاجتماعية أو فارق السن بين الزوجين أو اختلاف الدين أو الجنسية ... إلخ كما أن اشتعال جذوة العواطف الهوجاء فى بدايته تفقد الزوجين الرؤية المتزنة للأمور وتنتهى هذه الرعونة بالاصطدام بواقع صعب لم يكن مطروحاً من الأصل فى تقديراتهم وهذا يعجل بالنهاية التى غالباً ما تكون نهاية (درامية) ولا غرو فإن التطرف فى الحب يتبعه أيضاً تطرف فى الكراهية والانتقام .

٢ ــ الزواج الموضوعى : وهو يعتمد أساساً على التقييم المتوازن لكافة الأمور وتتم دراسة جزئياته بإمعان وتعمق وهو يستغرق وقتاً معقولاً فهو مثل الطعام الذى ينضج على نار هادئة فيأتى مريحاً للمعدة ومذاقه أفضل . كما أن المعاناة والتدقيق فى وضع لبنات هذا الزواج تكسبه تقديساً واعتزازاً عند الزوجين يجعلهما قادرين على صيانته من عواصف الزمان ، كما أنهما لا يحتاجان غالباً لمعاونة كبيرة فى تسوية نزاعاتهما ومعظمها يكون ناتجاً عن أسباب خارجة عن إرادتيهما . وهذا الزواج يتم

التعارف فيه فى أوضاع مستقرة كالأسلوب النمطى القديم من وجود تعارف بين العائلتين أو بين الأصدقاء وقد يأخذ الأشكال الحديثة كالعمل فى وظيفة واحدة أو فى دراسة واحدة أو التعارف عن طريق ناد أو رحلة مشتركة ... إلخ . وهو يعتمد على التكافؤ الاجتماعى فى كل الأحوال بالإضافة إلى أنه لا يغفل الجانب العاطفى المبنى على أساس سليم ومنطقى .

٣ ـ **زواج المنفعة** : هو زواج هش والأفضل أن نسميه زواجا هش فهو لن يحتمل الصدمات العادية وهو دائماً مشروط ومناطق النفوذ فيه محددة بخطوط وهمية فهو لا يعرف التكافل أو التعاون أو التضحية وهو محاط دائماً بالشكوك وسوء التنبؤات ، وهو التربة الخصبة دائماً للفضائح والخيانات .

وألا حظ باستمرار أن هذا النوع من الزواج يتم بغير رغبة تامة من الزوجين فقد تضطرهما الظروف إلى إتمام هذا الزواج تحت ضغوط الأهل أحياناً أو تحت ضغوط احتياج أحدهما للآخر مثل اضطرار شاب صغير للزواج من سيدة تكبره فى السن لعدم قدرته على الأعباء المادية للزواج وبعد فترة ينصرف عنها . أو مثل زواج ثرى كهل من شابة فقيرة وبعد إشباعها مادياً تزهد فى أمواله وتدب الخلافات بينهما . وهو مثل زواج العاطفة من حيث السرعة التى يبدأ بها والتى ينتهى بها وحتماً سينتهى ؛ فقد وُلد مبتسراً ويحتاج للرعاية والعناية فى الوقت الذى لا يوجد فيه مجال للرعاية أو التضحية .

لقد استشرى هذا النوع من الزواج فى مجتمعاتنا فى السنوات الأخيرة وهى الحقبة البترولية وأصبح أى شاب يلوح بمسألة عمله بإحدى الدول البترولية لأهل عروسه فتتم الموافقة عليه فورا ودون مجرد السؤال عنه ، وتتم الصفقة فى أيام معدودات .

من القصص الطريفة التى تعاملت معها أنه ذات يوم عقد قران آنسة عانس فى الأربعين من عمرها على شاب فى السابعة والعشرين من عمره لأنها حصلت على عقد عمل معقول فى إحدى دول البترول وتحتاج مرافقاً للسفر معها وأسالت لعاب الشاب بهذه المغريات فتزوجها وفى خضم الإعداد لإجراءات جواز السفر دبت الخلافات بينهما بسبب تكشف عيوب كل منهما للآخر يوماً بعد يوم ، ودائماً تكشف الشدائد والأزمات عيوب الإنسان بأسرع مما يتصور وفوجئت بهما قبل

موعد سفرهما أمامى يطلبان الطلاق الساحق الماحق البات بغير قيد ولا شرط ورأيتها تدعوه الأحمق وهو يسميها الكئيبة . وهكذا ضربت بالزواج والجواز عرض الحائط .

إن هذا يوضح أن إغفال عنصر التوافق الحقيقى فى الطباع بين الزوجين سيخلق — لا محالة — ظروفاً بالغة الاضطراب فى حياة هذين الزوجين حتى ولو لم يظهر هذا واضحاً فى البداية نتيجة إضفاء صفات مختلفة على هذه العلاقة .

إننى حينما أجد أمامى شاباً وفتاة فى سن صغيرة يرغبان فى عقد قرانهما ضد إرادة أهلهما تنتابنى الحيرة وأجدنى موزعاً بين قوتين تتجاذبانى الأولى هى إحساس بقوة هذه اللطمة على وجه أهلهما وما سيتلوها من تقولات الناس بما يمس سمعة الأسرة كلها بما لا يمكن تعويضه ، والثانية هى قوة تعاطفى مع هذين الصغيرين ذوى العاطفة النقية التى ترفض أن تشوهها الأطماع والمصالح .

ورغم أننى لا أستريح للزواج القائم على العاطفة وحدها دون سند من المنطق إلا أننى أضطر للتعاطف مع أولئك الذين يملكون نقاء القلوب مع توافق الظروف الاجتماعية بغير تفاوت فى المستويات ثم أجد أن المشكلة كلها فى عدم توافر الإمكانات المادية الهائلة وتعثر الشاب أو الفتاة فى طريق الحصول على هذه الإمكانات فى الوقت الذى تجد فيه أسرة الفتاة أمامها العريس الجاهز الذى سيوفر عليهم كل شىء تقريباً وسيختصر على الجميع فترة المعاناة .

إن المرء ليتحير فى هذه المفاضلة ، ولو ترك نفسه للحيرة تستغرقه لعجز تماماً عن الاختيار فلو رفض (العريس الجاهز) قد لا تأتى هذه الفرصة مرة أخرى ، فى الوقت الذى لا يستطيع العريس الآخر — خالى اليدين — فيه من توفير أى التزامات عليه .

وإذا قبلنا بالعريس الجاهز فلا نضمن مدى تعاون الفتاة معنا أو تبنى فكرتنا وقد ترتكب تصرفاً طائشاً ينتهى بالندم . ولو أنى أشعر بأن مسألة عواطف الفتيات هذه صارت تتراجع يوماً بعد يوم أمام طغيان المغريات المادية وسرعة تحقيق الأحلام وتوفير الحياة السهلة المريحة . ولذلك أميل كثيراً للتعاطف مع القلة الباقية من ذوى القلوب الشفافة والنفوس الراقية الذين لا تستهويهم هذه المغريات .

إن الدنيا لا تعطينا كل مانريد فهذا مستحيل . فلماذا لا نقنع بما فى أيدينا ؟ ولماذا لا نرضى بما قسمه الله لنا ؟! نحن نريد للفتاة زواجاً سهلاً وحياة رغدة تحاشياً

لعشرات المشكلات التي قد تملأ حياتها بسبب نقص الإمكانات المادية اللازمة للبيت هذا جميل .. لكن إذا لم تشأ الأقدار ما العمل ؟! أليس الأفضل أن نترك للزوجين تكييف حياتهما بالشكل الذى يريانه ملائما لتفكيرهما ، فليقوما معاً بتأثيث بيتهما قطعة قطعة فالكد والتعب يعطى للحياة طعماً أجمل بل إن كل قطعة أثاث فى هذا البيت ستكون لها قيمة معنوية رائعة فى نفسيهما أفضل بكثير من عملية تشوين الجهاز دفعة واحدة داخل الشقة . كما أن كفاح الزوجين من أجل بناء عشهما سيخلق فيهما حتماً القوة القادرة على اجتياز أكثر مشاكلهما بل سيكون التفريط فى هذا البيت أو فى كل منهما فى الآخر من أشق الأمور على نفس أى منهما وسيكسبهما هذا نضجاً فى تعاملهما معاً بل وفى تناول كافة أمور حياتهما .

لم أفلح فى إقناع زوجة شابة وثرية بالعدول عن رأيها فوالدها المليونير أعطاها وزوجها شقة فى عمارته وتحمل معظم التكاليف إرضاء لابنته المدللة التى فرضت عليهم زميلها فى الكلية زوجا لها وتم الزواج بلا مجهود ثم ماذا كانت النتيجة ؟ ساورها الملل منه بعد قليل وقررت استبداله وخرج من حياتها فى هدوء كما خرج كذلك الذى تلاه بأسرع منه والغريب فى الأمر أن زوج أختها ثار على زوجته لأن أهلها جهزوا أختها الصغرى المدللة بجهاز يفوق ما جهز به زوجته وكبده تكاليف كثيرة وفروها على عريس الابنة الصغرى ولم يكن يعرف أن هذا من حظ الابنة الصغرى السيء .

وقبل أن أنهى هذا الموضوع أود أن أتوجه بكلمة لكل أب : إذا كانت لديك الإمكانات المادية فحاول مساعدة أولادك وبناتك بالشكل الذى يعينهم على الكفاح ويعطيهم الصلابة المطلوبة لاستمرار الزواج ، فالمال السهل سيفسد هذا الزواج وإذا كنت لا تملك المساعدة وتقدم إليك من يخطب ابنتك فلا يكون سبب رفضك الوحيد هو قلة إمكاناته فهذا لا يليق بنا كما سيدفعه هذا لإيجاد المال المطلوب بأيَّة وسيلة ويبطل لك حجتك وبعد الزواج لن يعرف فى تعاملاته معكم معنى المروءة وسيعامل ابنتكم كسلعة دفع ثمنها .

فاتق الله فى ابنتك .

(٨) عقبات فى طريق الاختيار

حين يفكر المرء فى الزواج فهو بلا وعى منه يضع أمامه صورة معينة لشريك حياته ودائماً تكون هذه الصورة مثالية إلى أبعد الحدود . بعدها يدخل فى دوامة اسمها (الاختيار) وقد ينتابه اليأس الشديد فى هذه المهمة حتى يتصور أنه لن يتزوج أبداً ، فدائماً يتصور الإنسان أنه بمجرد أن يتخذ قراراً بالزواج فالأمر أصبح منتهياً — أو على الأقل — قطع نصف الشوط وما هى إلا أيام ويعثر على شريك حياته ، ثم تطول الأيام إلى أسابيع وشهور وقد تطول عند البعض إلى سنوات دون جدوى ودون أمل . وهذه المدة تتفاوت بين الأشخاص لأسباب كثيرة منها أسباب حقيقية ومنها أسباب أخرى بعيدة عن الواقع ، علاوة على أن منها أسباباً متعلقة بالتكوين النفسى للشخص ذاته الراغب فى الزواج .

وهى أسباب إما أن تؤدى إلى تقدم الشاب إلى أسرة الفتاة ثم يتم رفضه أو تؤدى إلى عزوفه عن التقدم للزواج . وقد تكون هناك أسباب أخرى للرفض أو العزوف ولكنى حصرت اهتمامى فى أنواع ثلاثة من الأسباب وهى الأسباب الحقيقية والأسباب غير الواقعية ثم الأسباب النفسية .

١ — **الأسباب الحقيقية** : مع انفتاح المجتمع فى الحقبة الأخيرة بغير ضوابط وبلا حساب على العالم الخارجى وبالتحديد على العالم الغربى الذى يعانى من مشكلات التخمة والثراء والرفاهية الباهظة فى وقت كنا نعيش فيه فى جو من القناعة والرضا بما لدينا وأصبحت السلع الأساسية التى كان يكابد الإنسان للحصول عليها نكتة سخيفة بجانب فيضان السلع الكمالية والترفيهية وألعاب التسلية وصار التهالك على هذه السلع بنهم وشراهة لا مثيل لها . كأنك ألقيت بقطعة قطن بيضاء فى حبر أسود فالتهمته القطنة وصارت سوداء تماماً .

كان هذا التكالب والنهم لكل ما يأتينا من العالم الغربى ببريقه الفتان هو السبب

فى الاستهانة بتقاليدنا وأخلاقنا ومثلنا الرفيعة المتأصلة فينا فوفدت إلينا أخلاقيات سيئة جاءت مغلفّة بغلاف براق سهلت للكثيرين اعتناقها والإيمان بها فصار الفساد والخلاعة والمجون عنوان التطور والرقى والمدنية ، وصار التمسك بالقيم الأخلاقية الرفيعة رجعية وتخلفاً وتهديراً لفرص التطور والنهوض والاستفادة بالوقت . وعلى ذلك صار تقييم الناس لبعضهم بما لديهم من إمكانات مادية وترفيهية وبالتالى فقد أصبح قياس الرجال بما يملكون من إمكانات فكيف يمكن الموافقة على شاب مؤمن ذى أخلاق طيبة تقدم للزواج ولا يملك الإمكانات المادية لرفاهية الزوجة ؟!

لقد ساهمت وسائل الإعلام فى تأصيل هذه الأخلاق سواء بوعى أو بدون وعى ولكن ألا تعرف وسائل الإعلام هذه فظاعة تأثيرها على عقليات الناس فى المجتمع فإذا كان هناك فى المجتمع أفراد ذوو نفوس ضعيفة يمثلون معاول هدم فإن وسائل الإعلام بمثابة (بلدوزر) يكتسح ويجرف ما أمامه بلا استثناء أو تمييز لا يمكن مثلاً لأية بنت أن تشاهد تمثيليه تليفزيونية ترى فيها أفراداً من نفس مستواها يتحركون داخل شقة أثاثها وديكوراتها تربو على المائة ألف جنيه ثم بعد ذلك تقبل أن تعيش فى شقة متواضعة .

فهى إذاً قد وضعت أول شروطها للزواج ـــ بلا وعى منها ـــ ذلك هو الشقة الفاخرة والأثاث الباهظ ثم تتسع الاهتمامات فتصل فى النهاية إلى تجميع المستحيلات مع بعضها وكل هذا لا يقدر عليه شاب مؤمن على خلق ، فلا مفر إذاً من التضحية بهذا البند ولا بأس من قبول شاب بلا أخلاق أو ضمير يمكنه جمع المال بسرعة واعتلاء أكتاف الغير والقفز فوق حواجز الأعراف والتقاليد والضمير فكان هذا التهرؤ الأخلاقى لدى الشباب الراغب فى الزواج وهنا يقع سوء الاختيار تحت إلحاح هذا الواقع المؤسف .

أيضاً ضمن هذه الأسباب اصطدام الشاب بحقيقة مؤكدة ألا وهى احترام المجتمع لصاحب المال أو الجاه أو السلطة والمركز الاجتماعى مهما كان فاسداً فهو مقبول بغير شروط تقريباً من أهل أى عروس فى حين توضع العقبات والعراقيل فى طريق الشرفاء .

ولذا يسعدنى تماماً هذا المد الإيمانى المتعاظم لدى الكثيرين من الناس ، فهو رغم ما يقال عن سلبياته يعتبر ظاهرة طيبة جداً من حيث كونه الضمان الحقيقى لرجوعنا

إلى حظيرة الدين والأخلاق والاستقرار النفسي .

٢ ــ **الأسباب غير الواقعية** : من هذه الأسباب وضع تصور مسبق عن شريك الحياة ، وغالباً تكون صورة خالية من العيوب تقريباً ، وبطبيعة الحال لابد من أن يكون الواقع غير هذه الصورة فتقع صدمة عدم تطابق مواصفات شريك الحياة مع الصورة التي أمامه ويحدث الرفض من أحدهما أو منهما معاً .

أما السبب الثاني من هذه الأسباب غير الواقعية هو لجوء البعض إلى التعميم فى نظرته لفئات معينة من المجتمع كأن تجد شاباً يرفض تماماً الزواج من أية جامعية لأنه سمع عن تصرفات رعناء من بعض بنات الجامعة مرجعها إلى سوء أخلاقهن أصلاً فيتصور أن كل فتاة جامعية سيئة الخلق . وقد يمكنك زحزحة هذه الفكرة عن رأسه ولكن لاحظ فى النهاية تلك الزوجة التي يتزوجها ــ ولو بعد سنوات ــ ستجدها غير جامعية ، فالتعميم ضار بالشخص نفسه قبل أن يكون ضاراً بالفئة التي يراها غير صالحة له دون استثناء .

والسبب الثالث من هذه الأسباب غير الواقعية هو ما يتمتع به البعض من خيال بعيد عن الواقع الفعلي فينساق الشاب وراء طموحاته الخيالية ويبدأ فى التطلع إلى مستوى اجتماعي يفوق تماماً مستواه الاجتماعي ليتزوج منه . ساعد على هذه التجاوزات التساوى فى الشهادات الدراسية أو فى فرص العمل أو ما إلى ذلك فيجْترىء الشخص على كافة الحواجز والطبقات الاجتماعية وحين يصطدم بالرفض يتساءل فى جنون عن علة هذا الرفض وهو لا يعرف أنه أخطأ العنوان من الأصل ولم ينظر إلى الموضوع إلَّا من زاوية رغبته هو وتطلعاته هو ، فهناك فروق فى المجتمع لابد من وضعها فى الاعتبار مهما كانت الملابسات ، فيجب أن ينظر لأبعد من ذلك بكثير ولنفرض أنه حصل على موافقة مبدئية وتمت الخطبة فإنه ولا شك سيكتشف رويداً رويداً أنه أخطأ الطريق وأنه لا يستطيع معايشة هذه الطبقات وسيجد نفسه بعد أن حاصر نفسه بالمصاعب والقيود المستحيلة ينسحب من هذه البيئة الغريب عنها .

أخيراً هناك نوع من الرفض يواجه بعض الشباب يكون السبب فيه غير مرئى لهم بوضوح وهو التقدم للزواج فى وقت غير ملائم أو ظروف غير مناسبة ، كذلك قد يقدم الشاب نفسه أحياناً لأهل العروس بشكل سيء أو متعجل أو بشكل ارتجالى مما يسيء الظن به أو يساعد على التشكك فى جديته أو قد يصدر عنه لفظ أو سلوك غير

مقصود يثير الريبة فى نفس محدثه . فقد يعنّ للشاب مثلاً أن يرفع الكلفة سريعاً بينه وبين أهل الفتاة المتقدم لها ظنا منه أن هذا أفضل لتقريب القلوب من بعضها أو قد يلجأ إلى أسلوب فكاهى ساخر يكسر به التجهم المصاحب عادة لمثل هذه المواقف أو يسلك سلوكاً شاذاً يغير به من قاعدة البروتوكول والرسميات والجمود فى مثل هذه المقابلات فتكون النتيجة هى عدم تقبل سلوكه ورفضه .

وهذا طبيعى لأن العقليات ليست واحدة وكذلك الحالة النفسية تختلف من شخص لآخر .

٣ ــ أسباب الإخفاق فى الاختيار الناتجة عن التكوين النفسى للشخص :

فى تناولى لأى مشكلة بين الأزواج تعرض أمامى لاأستطيع كثيراً إغفال عامل التكوين النفسى للشخص . وإذا كنت قد قسمت أسباب الإخفاق فى الاختيار والزواج إلى ثلاثة أنواع فإن أصعبها هو هذا النوع الثالث لأن تغيير المفاهيم المتأصلة مع نشأة الإنسان يعد بالغ الصعوبة بل وتقابل عادة بمقاومة داخلية لامثيل لها وهذا طبيعى فالمقاومة جزء لايتجزأ من عملية حفظ التوازن النفسى للمرء . ولكنى سأعرض بعض هذه الأسباب فقد تفيد بعض الراغبين فى الزواج وقد يضعونها فى اعتباراتهم كعنصر من عناصر البحث فى أسباب إخفاقهم فى الاختيار أو اتخاذ القرار أو أسباب رفضهم الزواج .

لا شك أن من أهم الأسباب المؤثرة تأثيراً جذرياً فى روع أى شاب أو أية شابة مقبلين على الزواج هى صورة العلاقة الأسرية التى نشئوا فى ظلها وعايشوها معايشة يومية حقيقية ، هذه العلاقات بين الأب والأم وبين أفراد الأسرة من إخوة وأخوات تشكل تكوين الشخص كله تقريباً ، فكل إنسان ينظر إلى علاقاته بالمجتمع كله من حوله بل إلى علاقاته بالوجود كله من خلال هذه العلاقة الأسرية بل إن علاقة الإنسان نفسه بربه تأتى من خلال علاقته بأبويه ، وبالتالى تكون صورة الحياة الأسرية التى تربى بين ربوعها هى النمط المتحكم فى اختياره فى الزواج بل فى مراحل مقدمات الزواج أيضاً من خطبة وشبكة وعقد قران ... إلخ .

فكثيراً ما يفشل الزواج فى بدايته إما بسبب اكتشاف الشخص أنه عاجز عن إيجاد علاقة طيبة تشبه نفس شكل العلاقة بين أبويه فيصاب بالإحباط وهذه صورة

تقابلني كثيراً حيث يقترن الشاب بفتاة قريبة الشبه من أمه فى معظم صفاتها وطباعها ثم بعد عقد القران تتكشف له أوجه الخلاف الواضحة بينها وبين صورة أمه فيشعر بالإحباط والندم ويأخذ فى صب لعناته على هذا العصر وهذه الأجيال .

وقد يكون هناك سبب عكسى هو تخوف الشاب من تكرار الصورة السيئة لعلاقة أبويه ببعضهما ـــ إذا كانت غير مستقرة ـــ فيقطع زمناً طويلاً وهو راغب عن الزواج وبعد عقد القران يحس بأنه عاجز عن إتمام هذا الزواج . فالارتباط الروحى الشديد للابن بأمه أو للبنت بأبيها يكرس داخل كل منهما التمسك بهذه الأسوة دون سواها فيعجز الابن عن إيجاد صورة أمه وتعجز البنت عن إيجاد الشبيه بأبيها فيحدث الرفض من داخل كل منهما لفكرة الزواج .

كما أنه فى حالات التفكك الأسرى والعلاقات الأسرية السيئة يحدث كذلك الرفض من داخل الشاب أو البنت للزواج ولكن فى هذه الحالة يصاحب هذا الرفض عداءٌ داخلىٌ للجنس الآخر ، وغالباً يكون هذا الرفض وهذا العداء العنصرى دفيناً ويصعب اكتشافه حتى أننى أتوه أحياناً كثيرة بين أسباب النزاع أو الخلافات لكنى مع التسلسل ومتابعة حلقات المشكلة أجدنى وجهاً لوجه أمام هذه العوامل النفسية ، ولذلك كثيراً ما يدهش البعض منهم حين يرانى تركت مظاهر المشكلة لأسأل أسئلة يظنها خارج الموضوع عن مستواهما الاجتماعى وعلاقات كل منهما بالأب والأم وترتيبه بين إخوته والأحداث الهامة فى حياته وعلاقاته السابقة بالجنس الآخر وميوله وتطلعاته وفلسفته فى الحياة .... إلخ .

وكثيراً ما أصل إلى نتائج مؤكدة بأن عوامل التكوين النفسى هى السبب الرئيسى وراء رفض البعض لفكرة الارتباط الحقيقى للزواج وكثيراً ما أجد أن هناك منهم من عقد قرانه فقط كخطوة وحيدة وأخيرة ولا يرغب فى إكمال المشوار ولا يضع فى قرارة نفسه أية خطة للاستمرار . بل هو لا يعرف كيف خطا هذه الخطوة ، وربما يكون قد اتخذها كنوع من التغيير أو إثبات الذات ولابد حتماً من أنه سيرجع على أعقابه من هذا المشوار .

وصايا تساعد على حسن الاختيار :

من خلال حالات تعثر الزواج التى عرضت لى خلال عدة سنوات استطعت أن

أحصر منها عشرة أخطاء شائعة تتسبب فى سوء الاختيار وألخص وجهة نظرى فيها للمقبلين على الزواج كالآتى :

أولاً : لا تختر شريك حياتك إلّا وأنت فى حالة تكيف وتوافق تام مع نفسك فلا تقدم على الاختيار وأنت تحت تأثير القلق النفسى أو أى نوع من المخاوف أو عدم الثقة بالنفس .

ثانياً : لاتختر وأنت تحت ضغوط الأسرة أو نفوذ أحد من رؤسائك أو أى إحراج من زملائك أو أصدقائك مهما بلغت شدتها .

ثالثاً : لا تختر شريكة حياتك وأنت بعيد عنها فى سفر أو غربة فدائماً يؤثر البعد فى نظرتنا للأمور ولا نعتمد على دقة الواقع فيعطينا الخيال صورة مختلفة كثيراً عما هو عليه .

رابعاً : تجنب الاختيار وأنت طريح فراش المرض أو فترة النقاهة بعد المرض ولا يجب أن نحمل عقولنا فى هذه الفترات عبء اتخاذ قرارات مصيرية من هذا النوع .

خامساً : احذر من التعارف الذى تم عن طريق اللقاء فى الطريق أو بالمراسلة أو بالتليفون ... إلخ فكلها علاقات وهمية مقضى عليها بالفشل وكلها مبنية على التصنع والغش والكذب .

سادساً : لا يكن اختيارك لمن يملك صنعة الكلام فقط ، فكثيراً جداً ما يعجز الإنسان الصادق فى شعوره عن ترجمة ما بداخله بوضوح .

سابعاً : إذاكنت ثرياً أو من المشاهير أو أصحاب المراكز المؤثرة أو النفوذ فأنت محتاج لفترة خطبة أطول من أجل تصفية هذه العلاقة من شوائب التزلف والتسلق وستمكنك طول مدة الخطبة من سبر أغوار نفس شريك حياتك وامتحان عواطفه .

ثامناً : لا تتزوج من الأقارب بدافع المحافظة على الكيان العائلى فهذه الخطوة هى التى ستدمر الكيان العائلى .

تاسعاً : ابتعد عن زواج الشفقة والشهامة فهو قصير العمر ومرهون بعوامل النفس المتقلبة فى حين أن استمرار الزواج ونجاحه لا يخضع لهذه التقلبات لأن التضحية فيه تكون متبادلة .

عاشراً : العلاقات العاطفية المتأججة لا تسمح إلَّا برؤية المحاسن دون العيوب فيجب إطالة الخطبة فيها ، ففى وجود الأهل ستكون النظرة فيها أقرب إلى الموضوعية كما أن وضع هذه العلاقة تحت الشمس سيعمل على تبخير ما بها من أوهام ، وبعد انقشاع ضباب هذه الأبخرة ستظهر معادن الطرفين على حقيقتها . فلا تتسرع بالزواج فى فترة تأجج العواطف .

كيف تختـــار :

لقد طغت الماديات فى هذا العصر طغياناً هائلاً وبالتالى تراجعت القيم الأخلاقية إلى الصفوف الخلفية ، ويظهر ذلك من سؤال أهل العروس عن الشاب المتقدم لها فيجتهد الجميع فى السؤال عن إمكاناته ورصيده بالبنك ثم عن وظيفته أو شهادته الدراسية ... هل لديه شقة ؟ هل يملك سيارة ؟ هل وهل وهل ...؟ ولم يسأل أحدهم هل يتقى الله؟ فأين نحن من سلفنا الصالح « زوّجها لمن يتقى الله فإن أحبها أكرمها وإن كرهها لم يظلمها » .

إن من يتق الله يعرف كيف يصون زوجته وكيف يحافظ عليها فلا يجور ولا يظلم ويعرف لها قدرها .

أليس لنا فى رسول الله ﷺ أسوة حسنة . ألم يحذّر من تزويج بناتنا لغير المتقين **« إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه ، إلَّا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير »** . نعم سيعم الفساد إذا سرنا على هذا النهج الذى نراه الآن لأن الشاب المؤمن التقى المتمسك بدينه لن يجد له مكاناً عند الناس فيصير منبوذاً يكره الناس من حوله ويكرهونه فيكفر بالقيم الأخلاقية النبيلة .

ولست أزعم أن التقيّ هنا هو ذلك العابد المعتكف بالمسجد بلا عمل طوال النهار ، فالتقوى تتنافى تماماً مع التواكل والبطالة . إن التقيّ متدين ، قوى الإيمان ، يحمل مسئولية وجوده فى هذه الدنيا ويمكنه تحمل مسئولية الزواج وإنشاء بيت زوجية وتربية أبناء صالحين يتسلمون الراية من بعده أسوة به .

أما بالنسبة للزوجة فيرتبط اختيارها بقضية هامة بل فى غاية الأهمية ألا وهى تنشئة أطفالها ، فيجب على الشاب عند اختياره للزوجة أن ينظر إلى أبعد بكثير من

مجرد إرضاء نفسه أو إرضاء غروره بزوجة يستحسنها شكلاً أو جاذبية أو ارتياحاً لحديثها . فهذا الإعجاب الوقتى سيأتى عليه وقت ينتهى عنده لأن الزواج كفيل بتغيير طريقة تفكير كل من الزوجين عدة مرات فيصقل تفكيرهما وينضج عقولهما . وتلك هى الخبرة التى يحصل عليها المتزوج ويستطيع أن يحكم من خلالها على تصرفاته السابقة الحكم الصحيح .

ونستطيع أن نلاحظ الفارق ، فغير المتزوج تكون المظاهر البراقة غالباً هى المحرك الأساسى له فى سلوكه ، بمعنى أن الشاب قبل الزواج يضع أولاً فى تصوره الزوجة الجميلة وينجذب إلى الجميلات ويتهالك على الجمال وحده فى حين أن المتزوج له نظرة مختلفة أكثر نضجاً وأقرب إلى الموضوعية ويدرك أن النظر إلى الجمال وحده يعد نظرة سطحية مائة فى المائة . فجمال الوجه يجب أن يواكبه جمال الروح والفتنة تواكبها الفطنة ورجاحة العقل ، والاهتمام بالقيم قبل الاهتمام بالقوام ، والتدين قبل التزين .

يقول رسولنا صلوات الله وسلامه عليه « **إياكم وخضراء الدِّمَن** » قيل وما هى قال « **المرأة الحسناء فى المنبت السوء** » .

وفى حديث الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه « **تنكح المرأة لأربع ، لمالها وجمالها وحسبها ودينها فاظفر بذات الدين تربت يداك** » صدقت يا رسول الله .

المرأة ذات الدين هى أم المستقبل . تلك الأم التى تنهض بتنشئة الرجال وهى حارسة القيم الأخلاقية والإنسانية النبيلة بين أولادها وبناتها وهى عنصر الاستقرار النفسى للبيت كله تحميه من عواصف الفتن المادية الطاغية ورياح الخلاعة والمجون والتمزق وانعدام الثقة . الأم المتدينة كنز لا ينضب عطاؤه ونبع لا يجف معينه .

يقول سيدالخلق « **ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيراً من زوجة صالحة ، إن أمرها أطاعته وإن نظر إليها سرته وإن أقسم عليها أبرته وإن غاب عنها حفظته فى نفسها وماله** » الاختيار إذن مهمة تستحق الاهتمام ولكن من واقع حالات الزواج المتعثر التى أراها يتضح لى أن الاهتمام بالاختيار فيها إما كان ضعيفاً أو غائباً تماماً عن تفكير الشاب أو الفتاة وفى معظمها لم يكن الاهتمام بالتفاهم بينهما موجوداً وأحياناً

كان يتم الزواج والطباع غير متلاقية أو متوافقة ومع ذلك فإعجاب كل منهما بالآخر ساعدهما على إغفال قيمة هذا التوافق فى الطباع علاوة على أن فترة الخطبة تموج دائماً بالتصنع وادعاء صفات الملائكية والشفافية وكلها أباطيل كاذبة ورغم أن مرحلة الخطبة تساعد كثيراً فى الاختيار فى الزواج إلَّا أن حالات الفشل فى الزواج فيما بعد تؤكد أننا كمجتمع لا نزال نتعامل بعاطفتنا فى أكثر أمورنا أهمية ولم نصل بعد إلى مرحلة النضج العقلى الكافى لتقرير مصير علاقاتنا ، وفى غالبيتها يكون السبب هو قليل من الألفة بين الشاب والفتاة علاوة على خوف كل منهما من فقد شريكه فى الخطبة فلا يجد البديل بسهولة ، وهكذا نفكر بطريقة « عصفور فى اليد » أو بطريقة « اللى نعرفة أحسن من اللى ما نعرفوش » وتتم التضحية بأهم عنصر من عناصر الاختيار فى الزواج .

أما الصداع المزمن فى الزواج فيأتى غالباً من بعض الحماقات التى ترتكبها بعض الفتيات إبان فترة الخطبة ظناً منها أن هذا سيجذب خطيبها إليها أكثر أو سيحفزه للإسراع بإتمام الزواج وكلها تصرفات رعناء تدل على الطيش والنزق وعدم تقدير المسئولية والإضرار بصورة أسرتها ، علاوة على أن قبول الشاب لتصرفاتها هذه أثناء الخطبة لا ينهض دليلاً على سعادته بهذا الزواج أو الرغبة فى إتمامه ، وحتى لو تم الزواج ستصير هذه الحماقات ــ كما قلت ــ هى الصداع المزمن فى هذا الزواج . فحين يدب الخلاف بين الزوجين وأجدهما أمامى على درجة عالية من الثورة والغضب كثيراً ما لا يتمالك أحدهما نفسه ويفلت من لسانه لفظ يلمس جرحاً عند الآخر فيكون الأمر بمثابة إلقاء القفاز فى وجه الآخر ، وهنا يغلى ويفور بما لديه من أسرار جارحة ويتبادل كل منهما فضح الآخر ومعايرته بنقائصه وغالباً يكون أكثرها حماقات فترة الخطبة التى لا ينساها الرجل لزوجته .

فى الواقع لو تكلمت عن أهمية الاختيار لاحتجت إلى مجلدات . فهى مهمة خطيرة فى حياة أى إنسان سواء كان رجلاً أو امرأة .

ومرحلة الاختيار فى الزواج تعد بمثابة أهم المنحنيات البالغة التأثير فى حياة أى شاب أو فتاة بعد منحنى اختيار نوع الدراسة التى سيدرسها ليكون تخصصه فيها هو مجال عمله ووظيفته بقية عمره ، بل إن الإنسان قد يمكنه مع الوقت تغيير عمله أو وظيفته إذا لم يجد التجانس والتكيف النفسى فيهما لكنه لا يمكنه تغيير حياته

الزوجية أو الأسرة التى ستنشأ بعد هذا الزواج بغير معاناة وتمزق يلازمانه طوال حياته ، لذلك فالأفراد ذوو الحساسية المفرطة يتأخر زواجهم كثيراً بسبب العجز فى التوفيق بين تطلعاتهم وبين الواقع المحسوس أمامهم وفى النهاية قد يضطرون لأخذ نوعية مختلفة تماماً عما طرحوه فى البداية من رغبات .

إن التردد عادة قبيحة كما أن الاختيار العشوائى كارثة محققة ، فلم يعد أمامنا غير أن نسلك سلوكاً وسطاً . نعقلها ونتوكل على الله .

وبما أن الخطبة كفيلة بتوضيح الجوانب الأساسية فى شخصية الطرفين فيجب أن تكون الخطبة إيجابية وليست مجرد امتداد لعلاقة عاطفية سلبية ، فالخطبة الإيجابية ستكشف لنا مدى توافر الاهتمامات المشتركة ومدى توافر الآمال والأهداف الواحدة ومدى تطابق المعايير الأخلاقية فالاختلاف فى هذه العناصر معناه عدم الرضا بينهما مدى الحياة .

كذلك توضح لنا الخطبة الإيجابية مع الوقت مدى توافق الميول والصفات بل وتلاق الأذواق أيضاً وتكاملها وتبين مدى الصدق فى مواقف كل منهما تجاه الآخر ، فمما يعيب الخطبة السلبية عدم اعتمادها على الصراحة والوضوح بين الشاب والفتاة ، خاصة أن الاختلاف فى المستوى الاجتماعى أو الثقافى بينهما يسهم بدور كبير جداً فى انعدام الصراحة والوضوح ويتيح المناخ المناسب للكذب والتصنع والتمثيل مهما طالت المدة . لذلك يؤدى دائماً الارتباط المتعجل إلى الندم خاصة وأننا نولى دائماً اهتمامنا للأمور المادية كالشقة والجهاز والمهر ومدى مشاركة كل طرف فى تحمل ما يخصه فى هذه المتطلبات فقط ودائماً يحمل التعجل بعقد القران من الأضرار أكثر مما يحمل من المزايا .

وأستطيع أن أدلل على صدق هذه الرؤية بإحصائية دقيقة نشرت عن حالات الطلاق فى جمهورية مصر العربية التى تمت خلال عام ١٩٨٥ حيث كان عدد حالات الطلاق التى تمت قبل الزفاف هو ٥٥ ألف حالة ، وهو رقم مهول ولا شك خاصة إذا عرفنا أن عدد حالات الطلاق كلها فى هذه السنة هو ٦٥ ألف حالة انفصال نهائى .

معنى هذا أن الطلاق قبل الزفاف يمثل أكثر من خمسة أمثال الطلاق بعد الزفاف ، ومرد ذلك دائماً إلى سوء الاختيار والتسرع بعقد القران .

(٩) زواج الأمر الواقع

لو سألت الجيل الحاضر كله عن مفهومه لكلمة « سياسة الأمر الواقع » لأجابك على الفور بأن معنى هذه الجملة هو أن شاباً وفتاة يحبان بعضهما وسيتزوجان ويضعان أهلهما أمام الأمر الواقع . ولست أعرف من هو أول من استخدم هذا التركيب اللفظى فى وصف هذا النوع من الزواج ولكن أذناى ملّت هذا التعبير الذى أسمعه يومياً من شبان وشابات يرغبون فى الزواج ضد رغبة أهلهم . ورغم أنها جملة عميقة المعنى إلّا أننى أصبحت أسمعها كذلك تجرى على لسان مراهق قروى ساذج يجهل القراءة والكتابة ، حين أسمعها منه أظنه بعدها سيقول كلاماً يتناسب مع هذا العنوان الضخم ، لكن كمية السفسطة والضحالة فى مفهومه أو خطته لهذا الزواج تجعلنى أشك أنه المتكلم وربما لقنه ملقن هذا التعبير قبل دخوله عندى بلحظات .

وكثيراً ما يفاجأ الشاب والفتاة بأننى أسألهما لماذا ترغبان فى الزواج ؟! فالمأذون يسأل دائماً عن سبب الطلاق لا عن سبب الزواج ، لكن هذا النوع من الزواج الذى سميته « زواج الأمر الواقع » يختلف . فهو زواج بعيد كثيراً عن المنطق وزاخر بالمواقف الرعناء غير المحسوبة ، ونادراً ما أجد خطة جاهزة لدى أى شاب وفتاة من هذا النوع طرحوا فيها أى نوع من الاحتمالات فى تغيير المواقف ، بل نادراً ما يعرفان الخطوة التالية التى سيخطوانها بعد عقد القران .

فهو إذاً بكل المقاييس زواج يأس . يأس الشاب والفتاة من موافقة الأهل على زواجهما . كما أنه يكون مليئاً بالمخاوف والشكوك من كل من الشاب والفتاة تجاه الآخر . فعقد القران نفسه بغير خطة أو جدول زمنى مدروس معناه الواضح أن واحداً منهما صار يشك فى نية الآخر أو يحس أنه بدأ يتغير أو يفيق من أحلامه المستحيلة التنفيذ أو بدأ يخضع للضغوط أو لاحظ أنه بدأ يستخدم عقله فى الكلام

معه ، وهنا يطرح الطرف المتشكك فوراً فكرة عقد القران لتكون ورقة قوية فى مساومة الأهل وفى نفس الوقت تكون ورقة رابحة فى مواجهة شريكه فى هذا الزواج حتى يقطع عليه الأمل فى التفكير فى الانصراف عنه .

معنى هذا أن هناك طرفا انتهازيا وطرفا ضحية — رغم أن الاثنين ضحايا — ودائما يكون الطرف الانتهازى هو المعني بالرفض من أهل الآخر . وهو ضحية كذلك لأنه قد يكون مخلصاً فى نيته تجاه الآخر وصادقاً فى عاطفته نحوه لكن الحواجز الاجتماعية الجبارة قد ترغمه على هذا السلوك الانتهازى ولو لمرة واحدة بعقد القران حتى يدعم مركزه التفاوضى فى المستقبل . ودائماً ينتهى هذا الحب الأفلاطونى بأوخم العواقب على الطرف الذى لا يملك إلا نقاء السريرة بغير إمكانيات مادية أو بغير أن يكون كفئاً للمستوى الاجتماعى للطرف الآخر ، فهو أشعل نار العاطفة ليحترق بها فى النهاية .

فالتفاوت الضخم فى المستوى الاجتماعى قد يسهل جداً تجاهله من الطرفين فى البداية حيث تكون العواطف متأججة وتستنكر تماماً مجرد التفكير فى أى فوارق اجتماعية . وقد يكون الطرف الأدنى مستوى خائفاً من المستقبل بينما يشعر الطرف الأرفع مستوى بارتياح وثقة ولا يفكر كثيراً فى هذه الفوارق بل يعتبر أن مجرد التفكير فيها هو درب من دروب الخيانة القبيحة لصاحبه ، وبطبيعة الحال فإن هذا الحب النظرى يرتفع بنفس صاحبه إلى نقاء ملائكى يجرده من النقائص الإنسانية الشريرة كالغدر أو الغش أو الكذب أو الانتهازية أو الظلم ... إلخ ويتمسك بالقيم والمبادىء الأخلاقية الطيبة .

هذا فى البداية .. لكن ماذا عن المستقبل ؟ خاصة تحت الإلحاح المادى المتنامى يوماً بعد يوم . هنا تبدأ جذوة العواطف فى الخمود شيئاً فشيئاً وتأخذ النوازع الإنسانية الغثة فى التصاعد تدريجياً حتى تشغل حيز النفس التى كانت محبة وهادئة وواثقة ، وتتكشف الحقائق للطرفين واحدة بعد أخرى ، وبكل أسف تتفجر بينهما خلافات بالغة الشدة بل أشد من خلافات الكثيرين ممن تزوجوا زواجاً تقليدياً ، وهذه طبيعة التطرف ، فالمغالى فى حبه يغالى أيضاً بالضرورة فى كراهيته ، فالتطرف هو التطرف ، وأعتقد أن الكراهية هنا مرجعها أن كلا منهما عايش الآخر أثناء ضعفه ، والحب نوع من الضعف ، والمرء منا يكره أن يراه غيره ضعيفاً ولا يحب أن

يتركه بعد أن رآه ضعيفا ، وهنا يكون التطرف والمبالغة فى الكراهية بعد ذلك حسب نوع الشخصية .

لكن ألم يكن من الممكن تجنب الوقوع فى هذه المشكلة لو أن الأهل تعاملوا مع هذا الواقع من زاوية أكبر .

إننا نجافى الإنصاف حقا إذا قلنا إن الخطأ يقع على الشاب أو الفتاة وحدهما .

أليس من المغالطة أن يعيش الأهل بعقليات القرن الثامن عشر والقرن الحادى والعشرين فى آن واحد ؟

يسمحون لابنتهم بالاختلاط فى التعليم والعمل ثم يرغمونها على أن تتزوج من يفرضونه عليها !!

قد أكون غير متحمس للزواج القائم على العواطف المشبوبة بين الفتى والفتاة لكننى أرفض أن يتصدى أهلها لهذه العلاقة بالأساليب القمعية الغاشمة . فالممنوع دائماً مرغوب . والأفضل تناول الأمر بعقلية ديمقراطية والسماح لهذه العلاقة بأن تكون أمامهم فى النور فلا مانع من أن يخطب الشاب ابنتهم ويعيشا فى جو هادىء مستقر يسمح لكل منهما برؤية الآخر بمحاسنه وعيوبه رؤية موضوعية بعيدة عن التطرف الذى يعد دائماً الوليد الشرعى للمطاردة والمصادرة على الرأى .

وبعد الخطبة إما أن ترى الفتاة أن رأى أهلها كان الأصوب أو يكتشف الأهل أن نظرتهم كانت خطأ .

إن الكثرة المتعاظمة من أعداد الشباب الذين يطلبون منى هذا النوع من الزواج تدل دلالة كافية على أن هناك فجوة زمنية سحيقة بين جيل الآباء وجيل الأبناء ولا تزال أساليب البطش والقمع هى السائدة فالبنت تكذب لتستمر علاقتها بغير متاعب والأهل مع الأسف يظنون أن كل شىء قد انتهى ولا يدركون أنها تجاريهم تجنباً للثورة عليها وحرمانها من الكثير من حريتها فهى تطبق قول الشاعر :

جلوا صارماً وتلوا باطلا وقالوا صدقنا ؟ فقلنا بلى

وحين يفاجأ الأهل بأن علاقتها بالشاب الذى يرفضونه لاتزال مستمرة يتظاهرون أحياناً بعدم المعرفة وقد تضطر لعقد قرانها بغير علمهم فى الوقت الذى يستمرون هم فى تجاهلهم للموضوع دون أن يدركوا أن وراء إلحاحها المستمر هذا

أنها قد عقدت قرانها فعلاً ، ويظل تصرفهم كما هو مثل حكاية جحا حين ضاع حماره فأخذ يبحث عنه وهو يغنى وسأله الناس أتغنى يا جحا وحمارك ضائع ؟ فقال لهم إننى أغنى حتى إذا سمعنى الحمار وهو مختبىء فى أى مكان يعرف أننى لست مهتماً لغيابه فيعود من تلقاء نفسه .

فالبنت هنا فى حيرة كبيرة ، فهى حينما عمدت إلى عقد قرانها سراً كانت تواجه جبروت الأهل فقط دون محاذير أخرى . وبعد عقد القران اكتشفت أنها خدعت نفسها ، فقد استخدمت حقها فى جزئية بسيطة ثم اتضح لها أن الماضى والحاضر والمستقبل كله سلسلة مترابطة فى حياة الإنسان وليس فى مقدور أحد فصل جزء منها عن الآخر بقرار ، وأن الإذعان لنداء العاطفة فقط ليس سبباً كافياً لعقد القران ، ويكون هذا هو سبب الحيرة والضغط النفسى المستمر على أعصابها فهى تشعر أنها تعانى كابوساً جاثماً على صدرها تتمنى لو أنها استيقظت فجأة واكتشفت أنه مجرد حلم .

وهنا أجد البنت أمامى فى المكتب غارقة فى أحزانها تبوح لى بمخاوفها الدفينة ، فهى عاجزة عن إقناع أهلها بزوجها ولا تجد جرأة للاعتراف لهم بأنها عقدت قرانها فعلاً وفى نفس الوقت تشعر أن زوجها استراح لهذا الوضع ولا يشعر معه بتضحيتها — إن لم يكن قد عايرها بهذه التضحية فى أى خلاف بينهما — فهى تشعر أنها شوهت صورة نفسها أمام زوجها قبل أحد آخر بقرار متهور بغير تقدير لنتائج الموقف الحماسى الذى وقفه معها فى البداية ، فى الوقت الذى زاده فيه عقد القران عتواً وصلفاً معها .

على الجانب الآخر لا يعرف أهلها شيئاً عن كل هذا إطلاقاً ، فالاستمرار صعب والطلاق أصعب لأنها ستضطر فى المستقبل عند زواجها بآخر أن تعترف بهذا الزواج لأنه مثبت رسمياً فى وثيقة زواج ووثيقة طلاق ولو أخفت ذلك عن زوجها الجديد وعلم به عن طريق آخر فالويل والثبور وعظائم الأمور .

وتظل الفتاة فى حيرة من أمرها إلى أن تلحظ أمها مثلاً بالصدفة تأخرها الدراسى أو تدهورها النفسى أو الصحى فتستطيع بأمومتها أن تستخرج هذا الاعتراف من ابنتها .

وهنا يبدأ (ما نومتر) الضغط النفسى للفتاة فى الهبوط وتحس بالارتياح قليلا ،

وشيئاً فشيئاً تحتدم المناقشات فى البيت ويشتد الجدل إلى أن تتم الموافقة على أن يتقدم لها الشاب ويخطبها .

وهنا أفاجأ بالزوجين الصغيرين أمامي يشرحان لى كيف أن الأب موافق على الزواج لكنه لا يعرف أنهما متزوجان فعلاً وأنها فرصة لن تتكرر ويجب اغتنامها .

وفى بعض الأحيان يكون الأب على غير علم فعلاً بهذا الزواج ، أعرف هذا من الشروط المجحفة التى يضعها لعرقلة طريق عريس ابنته لكن فى أحيان أخرى قد يكون الأب ملما بجوانب الموضوع عن طريق مصارحة أم البنت له لكنه يحتفظ لنفسه بكبريائه إلى النهاية ويتصرف تصرفاً محيراً يكون فيه أقرب إلى طبيعته لكن تناقض أحاسيسه يجعلنى أفهم أنه يعلم كل شىء . كما قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه : « ما أضمر ابن آدم شيئاً فى نفسه إلا ظهر فى قسمات وجهه وفلتات لسانه » .

هذا بالنسبة للفتاة ذات المستوى الاجتماعى الأفضل من مستوى الشاب . لكن إذا حدث العكس بأن كانت الفتاة فى المستوى الأدنى فالاتهام هنا من أهل الشاب يتجه فورا لأهل الفتاة ويتهمونهم بالتواطؤ المكشوف مع ابنتهم لتدبير عملية قرصنة لخطف ابنهم واستمالته بحيلة كاذبة لإغوائه بهذا التصرف ، ولا يمكن أن يصدقوا سوى أن الموضوع قائم على التحايل والغش . وقد يكون فهمهم هذا حقيقياً وقد يكون مجرد طنطنة لإثارتهم فيساعدونهم فى إفشال الموضوع كالذى سرقه لص فى بلد فاتَّهم أهل البلد كلهم بالتواطؤ لسرقته فيهبون جميعاً — دفاعاً عن كرامتهم — للبحث عن السارق وإعادة المسروقات .

قال لى أكثر من شاب أن أسرته وافقت على تأثيث منزل زوجية مناسب له ولعروسه التى عقد عليها بدون علم أسرتها وفى منتصف الطريق توقفت أسرته عن إكمال التأثيث بدعوى أنه ربما يكونون قد وقعوا ضحية تحايل من أسرة الفتاة لعدم المشاركة فى جهاز الزوجية وتحميلهم المهمة كاملة ، بل إن شكوكهم تمتد لابنهم نفسه فقد يكون متورطاً فى وعود لأهلها لم يستطع الوفاء بها أو التراجع عنها فافتعل هذا (السيناريو) أمام أهله لتوريطهم معه . شكوك لا نهاية لها .

أما قمة هذه الشكوك فتتولد على كل الجبهات فى حالة هذه المصاهرة الإجبارية بين أسرتين معاديتين لبعضهما البعض خصوصاً إذا كان هذا العداء مزمنا لسنوات

أكثر من سنوات عمر الشاب والفتاة بكثير ، وقد يحاول الفتى والفتاة ــ ببساطتهما الفطرية ــ التوفيق بين هؤلاء وهؤلاء فى البداية ولكن هيهات فهى جراح قديمة لا تندمل ويحس كل منهما أن مخالفة رأى أسرته هى الخيانة العظمى ، وهنا يكون التمزق الحقيقى بين الانتماء للعائلة أو تلبية نداء العاطفة .

فبعد عقد القران بينهما إما أن يخفيا تماماً عن أسرتيهما موضوع الزواج وتستمر محاولاتهما اليائسة فى التوفيق بين الأسرتين أو يتخذا طريق الهروب من الموقف كله تاركين لأسرتيهما خطاباً بالنتيجة التى وصلا إليها وهنا تندلع الحرب البشعة بين الأسرتين ويتم تبادل الاتهامات والشتائم من كل شكل وكل لون ، وتغير سيارات النجدة مسارها يومياً إلى مكان الأسرتين لحصر التلفيات وتحرير المحاضر .

فإذا كانت الخلافات أصلاً بين الأسرتين بسبب قوى كالثأر مثلاً فهى لن تهدأ بهذا الزواج بل ستستمر وتتعاظم أما إن كان خلافاً على ميراث أو ما إلى ذلك فالمصاهرة الجديدة ستذيب الكثير من الأطماع القديمة وقد ينتهى الأمر بالتصالح .

أيضاً يمكن تناسى الكثير من خلافات الماضى إذا كانت بسيطة ومن قبيل (ذكر حمام من عند هؤلاء لاف على حمامة من عند أولئك) .

فزواج الأمر الواقع ليس زواجاً قائماً بذاته ويستطيع أن يحمى نفسه من عواصف التحدى لكنه يكون مجرد خطوة لكسر جمود المواقف وخلق واقع جديد يضطر معه الجميع إلى تغيير مفاهيمهم الثابتة وتحريك الأحداث الراكدة بطول الزمن فسبحان الله ، يخرج من بين هذه القلوب المفعمة بالكراهية لبعضها حمامتى سلام تؤلفان بين هذه القلوب وتزرع فيها المودة والتفاهم .

وزواج الأمر الواقع لا يقع غالباً بغير محرك قوى ، وفى معظم الحالات يلعب العريس الجاهز دوراً أساسياً فى التعجيل بهذا النوع من الزواج ، فهو يسبب لهما ارتباكاً شديداً فى خططهما فتسرع الأحداث على غير توقع منهما ويصبح من الصعب التكهن بنتائجها فيأتى القرار متعجلاً بغير ترو وكأنهما كانا مكبلين بقيد فأضافا إليه قيوداً جديدة جعلت الموقف أكثر سوءاً .

فإذا كان العريس الجاهز من النوع الجاهز القوى فياويح مكة !!!

ستفعل هذه الفوارق الضخمة فعلها ، ولن تستطيع الفتاة أن تعترف بأنها

تزوجت ضد إرادتهم وربما كتمت سرها حتى يعقد قرانها على هذا العريس الجاهز لتبدأ شهر العسل فى محكمة الجنايات فعقد قرانها الأول هنا لم يكن مؤثراً فى الموقف ولم يفرض أمراً واقعاً بل كان هو الخطأ بعينه .

فالعريس الجاهز هو دائماً السلاح الفتاك فى كل المستويات . يستوى فى ذلك الغنى والفقير . بمعنى أن الأغنياء يرحبون بالعريس القادر على استمرار عيش الزوجة بنفس المستوى الذى تعيشه فى بيت أسرتها إن لم يكن أفضل ونحو هذا الهدف يتعاملون مع أى عريس غير جاهز بمنتهى التعسف بل وجرح الكبرياء أحياناً فهم لا يعنيهم منه حتى خبر انتحاره لجرح كرامته وفشله فى الزواج من ابنتهم .

فالثراء لم يمنحهم التسامح أو الشفقة بل زادهم خوفاً على ثرواتهم وخوفاً من انحدار مستواهم بمرور السنوات .

أما الفقراء فالعريس الجاهز بالنسبة لهم فرصة لن تتكرر ليوفر عليهم أعباء الزواج ويرفع مستوى ابنتهم ويختصر عليها طريق المعاناة وتعيش معه فى بحبوحة من العيش الكريم . وعلى هذا فإنهم يضعون جانباً مسألة العواطف والتوافق الروحى والوجدانى بين الزوجين . فترتيب الأولويات يرغمهم على التضحية برغبة ابنتهم فى الزواج من الشاب الذى تريد .

وهذه الفئة دائماً هى التى ينجح معها زواج الأمر الواقع لأنها ليس لديها ما تخسره وعلى أسوأ الفروض إن لم يرتفع مستوى ابنتهم فسيظل كما هو .

هذان المستويان مفهوم عندى رد فعلهما مسبقاً لكن المستوى الذى يشكل البنيان الحقيقى لأى أمة من الأمم ، أبناء هذا المستوى يلعبون دوراً أساسياً فى القصص التى أعايشها أمامى يومياً القصة الأزلية الأبدية . قصة الفئة المحافظة على تقاليد أصيلة ولها تطلعات وطموحات كبيرة وتعتبر أن زواج البنت أو الابن هو جزء لا يتجزأ من الطريق المؤدى لتحقيق هذه الطموحات والتطلعات كما أن العفة والشرف هى الأساس فى وجودهم فى هذه الحياة . ذلك هو المستوى المتوسط أو الطبقة المتوسطة من الناس والتى تشكل خلافاتهم العبء الأكبر على تفكيرى ووجدانى . تلك الخلافات التى إما أن تؤدى إلى زواج الأمر الواقع أو تأتى نتيجة له .

فأبناء هذه الطبقة المتوسطة هم الذين يحدث بينهم اللجاج كثيراً فى أمور التقاليد

والمبادىء والقيم ويمكن أن تقوم الدنيا ولا تقعد إذا تعرضت هذه الأمور للإهدار أو حتى المساس بها ، خلافاً لطبقة الأثرياء الجدد التى لا يهمها من هذا شىء تقريباً وكذا البعض من طبقة الفقراء . المعدمين فرغيف الخبز بالنسبة لهم أهم كثيراً من كل المبادىء والتقاليد ، والقيمة الحقيقية لديهم هى فى المأكل والملبس ولذلك كانت بناتهم سلعة رخيصة يشتريها أى عريس من بلاد البترول ويزنها على ميزان (الطبلية) باللحم والعظم ثم يأخذها معه إلى بلده بعد أن يدفع عنها فى المطار رسوم زيادة الوزن .

لقد علمت مصادفة أن هناك مافيا من السماسرة يتولون مهمة تزويج بنات الطبقة المعدمة من أثرياء بلاد البترول وذلك تحت مظلة القانون والدستور . فهم بذلك لم يخالفوا القانون وإن خالفوا ضمائرهم وسمحت لهم وضاعة أخلاقهم بالإثراء من هذه التجارة التى هى مشروعة للأسف .

ولم أصدق أول فتاة ذكرت لى هذه الحقيقة حيث هربت من أهلها لتتزوج من الشاب الذى رفضوه ، لم أصدقها إلا حينما تكررت على أسماعى هذه الروايات ، بل إن إحداهن ذكرت لى أن الحى الفقير الذى تسكنه يعتبره السماسرة بمثابة حظيرة للطيور الداجنة وليسوا بشراً .

وهكذا يلعب العامل الاقتصادى دوره الخطير فى ضياع هويتهم فيفاجأ المرء بأن أطفال الأسرة الجدد كلهم عبارة عن تشكيلة من الجنسيات المختلفة رغم أن أمهاتهم فى النهاية مصريات الأب والأم والمنشأ .

مثل هذه النماذج لم تكن عوامل مهيئة لهذه الأسر ومثيلاتها لاتخاذ موقف مضاد لهذه التقاليد الجديدة بل سارت فى نفس الطريق بغير توجس أو تردد الأمر الذى أصبحت أرى معه أنه لابد من تدخل الدولة لوقف هذا السيل المنهمر فى هذه التجارة الجديدة ووضع الضمانات الكافية للوصول إلى الجدية فى هذا الزواج أو التزويج الإجبارى أو الذى يغلب عليه طابع التحايل واستغلال الحاجة ، ذلك الأسلوب الشائن من سماسرة أشرار يعرفون طريقهم جيداً ويعرفون التوقيت والمناخ المناسب لممارسة نشاطهم الجهنمى البعيد عن الأخلاق والأعراف .

فوجئت ذات مساء بفتاة مع خاطبها يطلبان منى عقد قرانهما فى الحال وبسرعة حسماً للصراع وقطعاً للطريق على أهلها ، فرغم أن الفتاة والشاب مخطوبان رسمياً إلا

أن أهلها تحولوا عن هذه الخطبة تحت إلحاح سمسار الفتيات الملعون والذى أخذ موافقة من أهلها على الصفقة ليصطحبها ثرى البترول معه فى سفره وهنا لاذت الفتاة بخاطبها ولم يكن أمامهما من خيار سوى فرض الأمر الواقع بقوة القانون .

فتاة بهذه الظروف تجد نفسها بين خيارين أحلاهما بالغ المرارة ، فهى قد تركت بيت أسرتها بغير رجعة لكنها لا تسمح لنفسها بالإقامة فى بيت خاطبها لحظة واحدة بغير زواج رسمى وإلا كانت كالمستجير من الرمضاء بالنار .

فى هذه الحالة لا أستطيع بل لا أملك أن أنصحهما بالتريث والصبر ومصارعة كل هذه الأوضاع المقلوبة بمفردهما. كما لا تسمح لى أخلاق ولا ضميرى بأن أسد فى وجهيهما باب الحلال حيث صارت قاب قوسين أو أدنى من الحرام ، وظروفهما كلها مهيأة لهذا بعد هذه الحماقة والجشع من أهلها الأغبياء قصيرى النظر . بل إن امتناعى عن عقد قرانهما فوراً قد يكون إيعازاً منى لخطيبها ليمن عليها فيما بعد ويعايرها ويتندر بها فى وقاحة .

إن من أشد مساوىء زواج الأمر الواقع هو معايرة الزوج لزوجته فيما بعد واحتساب تضحيتها من أجله عليها وليس لها ، الأمر الذى يسقطه فى نظرها وتعتبره إنساناً جباناً ظلت مخدوعة به سنوات ولهذا فزواج الأمر الواقع يظل ناقص الأركان ما لم يسانده بعد ذلك اعتراف الأهل به ، فهو كما قلت مجرد خطوة لتحريك جمود الموقف لكن استمراره واستقراره يظلان مهددين دائماً بسبب قطع وسائل الاتصال بين الزوجة وبين أهلها .

لقد حكت لى سيدة شابة يقاطعها أهلها تماماً بسبب تحديها لإرادتهم والزواج ممن يرفضونه حكت لى من بين دموعها كيف أنه يبيع ويشترى فيها بعد أن اطمأن إلى قطع كل خطوط الرجعة بينها وبينهم ولم يكتف بسبها وإهانتها بل تعلم فيها رياضتى الجودو والملاكمة وأجادهما حتى وصل فيها إلى مراكز مشرفة .

(١٠) الزواج المبكر

قد يتساءل البعض مندهشاً كيف أننى أدرج الزواج المبكر ضمن المشكلات الزوجية بدلاً من اعتباره إحدى المزايا الهامة فى الزواج . أتوقع هذه الدهشة .

لقد وجهت هذا السؤال لحوالى عشرين شخصاً جمعتنى بهم مواقف متنوعة وظروف متعددة ولقد حصلت على آراء مساوية لبعضها تقريباً من ناحية كون هذا الزواج خطأً أم صواب هذا الاستفتاء المحدود وضعنى فى حيرة شديدة جداً فاستنتاجاتى من الواقع العملى تؤكد غير هذا وبناء على ذلك اعتبرتها مشكلة مكتملة الأركان ولها آثار مدمرة فى أغلب الأحيان على حياة الزوجين على المدى البعيد كما أنه يسبب الصداع المستمر للمحيطين بهما .

وحتى لا نجافى الإنصاف فى استقراء النتائج سأقسّم هذا النوع من الزواج إلى قسمين القسم الأول خاص بتزويج الأولاد والبنات فى سن مبكرة كعادة أهل الريف والأوساط غير المتعلمة . أما القسم الثانى فهو يختص بالزواج الذى يتم بين شاب وفتاة فى مرحلة الدراسة .

من واقع متابعتى للقسم الأول أستطيع أن أؤكد أن عملية تزويج الأولاد والبنات بهذه الطريقة هى عادة مذمومة وتنتهى غالباً بأحد أمرين إما تدمير هذا الزواج أو الابتعاد به عن أى هدف كان مقصوداً منه .

فهو زواج مصمم أصلاً لمنفعة الأسرتين لا تراعى فيه إطلاقاً مصلحة الزوجين وفى معظم الأحوال تكون المنفعة مادية بحتة فهى إذاً صفقة تجارية قامر فيها الكبار بمستقبل وحياة الصغار مستغلين فى ذلك اللعب بعاطفة الصغار وفرحتهم بالزواج والاحتفال بالزواج وارتداء ثوب العرس وكأن أمر الصغار لا يهم الكبار فى أدنى شىء .

فالصغيران لا يعرفان شيئاً عن واجبات الزواج أو حقوق كل منهما فيه لا يعرفان ما هو دورهما ولا كيف يتعاملان ولا كيف يمكن الوصول إلى التفاهم المشترك أو الاحترام المتبادل أو أى نوع من تقدير المسئولية الملقاة على عاتقهما فهما مجرد تروس صغيرة تديرها تروس أكبر من آلة واحدة وقد تستمر الحياة على هذا المنوال حتى تتآكل تلك التروس الصغيرة .

إن نصف حالات الزواج بهذه الطريقة تنتهى فى العام الأول للزواج أو فى العامين التاليين على الأكثر والسبب دائماً هو عدم توافق الطباع أو التأقلم بين الزوجين .

أما النصف الثانى من هذه الحالات فهو النصف الذى تخرج منه حالات تعدد الزوجات بسبب التزام الزوج الأخلاق تجاه زوجته وأولاده منها ، أو حالات الطلاق المتأخر عن موعده والذى يتم كنتيجة لأسباب أخرى قد تبدو بعيدة عن المحرك الأساسى أو حالات الانفصال الزوجى بغير طلاق وبغير زواج بالإضافة طبعاً لحالات ينجح فيها الزواج لأسباب من عند الله ولا دخل فيها للاختيار .

ومن واقع متابعتى لأغلب حالات التعدد فى الزوجات أجد هذا الزواج فى سن مبكرة كامناً وراءه فقد جاء فى وقت لا يستطيع فيه الفتى الحكم على الأمور حكماً معقولاً وتأتى موافقته على الزواج بسرعة متناهية ويدفع ثمن هذه الموافقة فيما بعد غالياً ويعجز عن اتخاذ قرار بإنهاء هذه الحياة غير الزوجية حيث يكون محاصراً بأبناء أنجبهم بشكل عفوى وبكثرة عددية تجعل فكرة الانفصال بين الزوجين درباً من دروب المستحيل فيكون الحل البديل هو الإبقاء على هذه الأسرة مع الاقتران بزوجة أخرى تكون أقرب إلى الصورة التى استقر عليها بعد تجربته الأولى .

وإذا نظرنا إلى الخلافات الزوجية لهذه السن الصغيرة نجدها كلها سخافات فى سخافات لا تعد ولا تحصى ولا يجوز أبداً التوقف عندها لكنها دائماً تكون كالسوس الذى ينخر فى العظام ودائماً تنتهى نهايات مؤسفة من شتائم وضرب وركل وتبادل قذف الأحذية و (الشباشب) ثم بعد ذلك تنتقل هذه الخلافات نقلة أكبر حيث تتسع هوة الخلاف بتدخل الكبار وتفتح كل الجبهات النار .

ذات مرة كنت فى أحد أفراح عقد زواج لزوجين فى هذه السن الصغيرة

وفوجئت حين وصولى بجلبة وضوضاء ومشادات كلامية ومشادات عضلية أيضاً بين بعض الشباب المتحمس جداً وبين الكبار من أهل العروسين فسألت عن السبب وياويح روعى لما سألت . انتحى بى شخص جانباً ليشرح لى أسباب هذا الاستنفار الذى حدث فقد صفع العريس طفلاً على وجهه بسبب تأرجحه على (كوشة) العروسين وكان هذا الطفل المشاغب شقيق العروس فما كان منها إلا أن وجهت لعريسها لكمة فى وجهه ثم فرت من الكوشة بسرعة قبل أن يتمكن العريس من رد اللكمة للعروس بأشد منها وهكذا انقسمت الحارة كلها إلى فريقين من كل الأعمار يتبادلان الصياح والشجار ولا عزاء للسيدات . بعد تهدئة الخواطر عقدت القران فى جو مشحون ومتكهرب وتم الزفاف ثم فوجئت بهم أمامى بعد عدة أشهر ليتم الطلاق بينهما لأسباب أكثر سخافة .

فى هذه القصة اختصر الزوجان طريق الهلاك الذى كانا يَتَردَّيَان فيه وأنهيا زواجهما قبل الارتباط الحقيقى بالأبناء وتكوين أسرة وربما يكون الكبار هم الذين اختصروا لهم هذاالطريق .

إن هذا النوع من الزواج ــ زواج الأعمار الصغيرة ــ ربما كان ينجح فى الماضى لأسباب خاصة بسهولة الحياة وبالعادات الاجتماعية المحافظة كما لا ينبغى أن نهمل عنصر تقديس الصغار للكبار والتضحية بأى رغبة تتعارض مع رغباتهم التى تعتبر بالنسبة لهم أوامر واجبة التنفيذ فكانت تتم تسوية نزاعاتهم فى هدوء لكن هذا لا يناسب مجتمع اليوم فقد تهاوت كل التقاليد العائلية المحافظة وأصبح كل فرد فى العائلة يمثل قطباً مستقلاً عن غيره تماماً فإذا زوجوه صغيراً فإنه ما إن يصل إلى مرحلة النضج العقلى الكافى للحكم على الأمور حتى ينقلب على واقعه بغير اكتراث .

أما فيما يتعلق بالقسم الثانى وهو الخاص بزواج شباب صغار فى مرحلة الدراسة فقد تكون أفضل حالاً من سابقتها إلا أن لها جوانبها الخاطئة فى مجتمعنا ، فهى تعتبر دليلاً على استهانتنا بالزواج عموماً ، بالإضافة إلى إهدار التعليم والدراسة ظناً من البعض أن كلا منهما يدعم الآخر فى حين أنه ينافيه .

لقد قرأت آراء متفرقة فى أكثر من مناسبة لكبار الكتاب والمفكرين يعربون فيها عن استحسانهم لتزويج البنات أثناء الدراسة الجامعية متخذين المجتمعات المتحضرة نموذجاً ينبغى التأسى به أو السير على نهجه وهناك فعلاً حالات عديدة من هذا الزواج

منتشرة فى مجتمعنا لكنها لا تأخذ شكل الظاهرة .

إلا أننى أرى من واقع مشاهداتى أن الزواج أثناء الدراسة قد يكون سبباً فى عرقلة إتمام الدراسة والعكس صحيح .

ومع احترامى الكامل لآراء هؤلاء المفكرين التى هى حتماً نتاج خبرات هامة وواسعة أو رؤية عملية لهذه المجتمعات المتقدمة رؤية عيان إلا أننى أعجز عن منع نفسى من أن أسأل .

أين نحن من هذه المجتمعات؟! يجب أن ننظر أولاً لمواقع أقدامنا ثم نتكلم . إننا نسمى الفتاة التى تدرس فى الجامعة عندنا جامعية مجازاً ، فالمقارنة ظالمة بين الفتاة الجامعية فى دولة كاليابان مثلاً وبين الفتاة الجامعية فى مجتمعنا ، فالأولى تلتحق بالجامعة من أجل الترقى فى العلم والبحث والإضافة والمساهمة فى السباق الحضارى .

أما فى مجتمعنا فإن مانراه من واقع هو أن نسبة لا يستهان بها من الفتيات تلتحق بالجامعة من أجل غرض ضيق هو الترقى فى الزواج . وهذه النسبة لا تريد بحثاً ولا إضافة ولا سباقاً حضارياً . وفى هذه الحالة كان يجدر بهذه الفئة ـــ باعتبار أن الزواج هدفها ـــ أن تدرس فى كلية تتخصص مواد دراستها فيما يخدم هذه الزوجة فيما بعد فى زواجها ورعاية أولادها كالتعليم الدينى والاقتصاد المنزلى وطب الأطفال ... إلخ . فتنشِّىء أطفالاً يصنعون المستقبل ويساهمون بحق فى سباقنا الحضارى لتتبوأ أمتنا مكانتها المرموقة بين الأمم .

فجامعة سيفنسون بالولايات المتحدة الأمريكية تخصص إحدى كلياتها لتدريس شئون الحياة الزوجية والأمومة ، ولا أعرف لماذا لم نكن نحن السابقين فى هذا الشأن رغم احتياجنا لهذا ورغم ملائمة ظروفنا له .

لكن هذه الفئة التى ذكرتها لا تنظر للأمور من هذه الزاوية بل هى تضع نصب عينيها الاختلاط وإتاحة فرصة أكبر للاختيار والزواج المشرف . ومنهن من تراها فرصة للوقوف على قدم المساواة مع الزوج فتضمن منه معاملة أكثر احتراماً لها . ولذلك نرى ترهات وحماقات تظهر لنا مدى سخافة تفكير بعض هؤلاء الفتيات كارتداء الغريب واللافت للأنظار من الأزياء وكأنها تثأر لنفسها من الزى الموحد الذى كانت ترتديه فى المدرسة ، كما أنها قد تتخذ من لفت الأنظار بهذا الشكل المزرى

مادة لإعلام الجميع أنها كبرت . فهو تصرف طبيعى يدل على أنها مراهقة .

فهل نلقى على كاهل هؤلاء مسئولية زوج وبيت وأسرة ؟!!!! إن الزواج فى هذه الحالة يكون بمثابة وضع العصا فى عجلة الدراسة فلن تعطى عطاءين فى وقت واحد .

كما أن فكرة الترقى فى الزواج أيضاً انتقلت إلى الشبان أنفسهم وبكل الأسف ، فترى شاباً جامعياً غير مقتنع بالكلية التى يدرس فيها على وجه الإطلاق ومع ذلك يقول لك إنه يريد شهادة يتزوج بها .

وربما ساعد على تأصيل هذه الأفكار داخلنا ذلك الوهن الذى أصاب العملية التعليمية عندنا ، فماذا ينتظر من طالب لا يستكمل الكتب التى يدرس فيها إلا قبل الامتحان بأسابيع وفى بعض الأحيان قبلها بأيام ، ثم يأتى الدور على أساتذته فيقومون بشطب ثلاثة أرباع المقرر الدراسى لضيق الوقت ، ناهيك عن لعبة الكراسى الموسيقية من انتداب أساتذة طول العام من جامعات لأخرى فيجيء الأستاذ مرة ولا يجيء الأخرى خاصة فى جامعات الأقاليم وأسلوب سلق البيض .

فلم نسمع عن طلبة فى جامعات أوروبا مثلاً يدرسون عشر سنوات فى تخصصات لايرغبون فيها ليتخرج الطالب فى النهاية إنساناً فاشلاً فى الحياة .

الطالب هناك له شخصيته وله كيانه . يحترم ذاته ويحترم وقته فلا يضيع منه مثقال ذرة هباء لأنه يحمل مسئولية وجوده ومسئولية حياته ومستقبله . يرفض الاتكالية والتطفل ويعرف طريقه خير المعرفة . يعرف أن طريقه ليس مفروشاً بالورود والرياحين فى حين تنقصنا نحن هذه الروح فالطالب فى انجلترا مثلاً يذهب إلى ألمانيا ليدرس تخصصاً معيناً يناسبه وغير موجود فى جامعات إنجلترا ويتحمل فى سبيل هدفه الكثير فى الوقت الذى يدرس فيه الطالب الألمانى فى إنجلترا تخصصاً يناسبه غير موجود بألمانيا هذا هو الطالب الذى يعرف حقوقه وواجباته وأهدافه وتطلعاته يعرف أين يضع قدمه وكيف يرسم مستقبله ويتحمل مسئولية حياته .

هذا الطالب حين يتزوج أثناء دراسته فالزواج يصبح بالنسبة له دافعاً للأمام أما جامعاتنا التى أصبحت وبشكل متنام امتداداً طبيعياً للمرحلة الثانوية تسلب الطالب شخصيته وتقضى فيه على الطموح والشعور بالمسئولية فيظل متطفلاً على غيره معنوياً ومادياً سنوات طويلة فكيف ينجح فى زواجه أثناء هذه الدراسة وكيف يتحمل هذه

المسئوليات الملقاة على عاتقه ؟!

إنسان لا يزال ينتظر دائماً المعاونة من عند الآخرين ودائماً حلول مشاكله عندهم؛كيف يكون مسئولاً عن أسرة وزوجة ؟! هو يعرف جيداً مدى القصور فى العملية التعليمية لكنه مضطر للاستمرار لأخذ شهادة أو رخصة تساعده فى الزواج فيما بعد وتجعله محلاً للترحيب به فى العائلات .

وغالبية حالات الزواج المبكر تأتى كإفراز طبيعى لصراعات شتى بين العواطف والإمكانيات والعقل والمبادىء والمنطق والخطأ والتردد والحماس ولم أسمع إلا فى حالات قليلة جداً بل ونادرة عن زواج مبكر تم بدون حالات مخاض عنيفة تسبقه خاصة إذا كانت أهلية الزوجين للزواج لم تكن قد اكتملت بعد وإذا لم يواكب هذا الزواج المبكر تفهما متبادلاً بين الزوجين والمخالطين لهما فسيكون هذا الزواج هو الصداع المزمن بعينه .

وإذا كنت أحبذ الزواج فى سن تسمح للفتى والفتاة بدرجة من النضج العقلى والنفسى لتحمل هذه الأمانة إلا أننى — وأرجو ألا أكون من المتشائمين — أفضل أن أتحفظ فى إبداء حماسى لهذا الرأى لأنه لا يناسب ظروف المجتمع المعاصرة من صعوبة المعادلة . فخروج الفتيات الصغيرات للعمل والدراسة والاختلاط فى هذه السن المبكرة أوجد حتميات جديدة يصعب تحقيقها فى مناخ انعدام أو قلة الإمكانات المتاحة لدى الشباب للزواج وهذا الاتساع المتزايد فى زاوية اختلال هذه المعادلة لو استمر بهذه المعدلات سيؤدى إلى تهرؤ أخلاقيات كثيرة لانزال نحترمها ونفخر بها .

(١١) زواج الأقارب

كنت أظن قديماً أن زواج الأقارب نعمة كبرى تدعم الترابط الأسرى والتماسك العائلى أكثر فأكثر ثم أخذ يتكشف لى يوماً بعد يوم بطلان هذا الرأى ثم اكتشفت أنها مشكلة لا ريب .. مشكلة من أخطر المشكلات الزوجية والغريب فى الأمر أننى كنت أدهش فى بداية الأمر من اتصاف هذا النوع من الخلافات بالحدة والتطرف والبعد عن التراحم بالمرة وكنت أراه خروجاً عن المألوف بل غير منطقى أن يكون خلاف الأقارب بهذه الحدة لكن مع إرجاع الخلافات إلى أصولها وتحليل المواقف من خلال الواقع الفعلى تأكد لى بما لا يدع مجالاً لأى شك أن شدة الخلافات بين الأزواج والزوجات الأقارب لابد من أن تكون عالية الرنين وفيها الشدة والحدة أكثر من مشكلات غير الأقارب.

فزواج الأقارب ــ وهو تقليد متبع من قديم الزمان فى المجتمعات المغلقة على نفسها كما يحدث عادة فى الريف أو صعيد مصر ــ يخضع لمصالح محددة تلعب دوراً أساسياً فى إنشائه واستمراره فهو يقع فى المجتمعات المتأصلة فيها الملكية ــ كالملكية الزراعية مثلاً ــ حيث يلعب هنا الخوف من تفتت هذه الملكية وتسرب أجزائها وتوزعها خارج نطاق العائلة الدور المؤثر فى هذا النوع من الزواج .

كذلك هناك نوع من الزواج بين الأقارب خاص برعاية أبناء توفى أحد أبويهم وأصبح يخشى عليهم من دخول عنصر غريب عن العائلة فى حياتهم يتسبب فى الأضرار بهم اجتماعياً أو نفسياً .

أيضاً هناك زواج يتم بين الأقارب بدافع عدم المقدرة المالية لإنشاء زواج من مهر وشبكة وجهاز وشقة وحفل زفاف ... إلخ فيمكن الإقامة مع الأهل وتقليل هذه الأعباء .

كما أن هناك زواجاً يتم بين الأقارب بسبب كبر السن للزوجين وفوات قطار الزواج بالنسبة لهما وتراجع منحنى التطلعات والطموحات واكتشاف كل منهما أنه أضاع العمر فى طلب المحال وهنا يقبل كل منهما الهزيمة بشرف بدلاً من التمادى فى إهدار الفرص .

كما لا يجب أن ننسى أن هناك نوعاً من الزواج بين الأقارب أخذ ينتشر فى السنوات الأخيرة مرجعه عدم الثقة بين الناس وانتشار الغش وتغير الأخلاقيات والتباعد عن الدين وخداع المظاهر وإزاء كل هذه المحاذير يفضل البعض الزواج من الأقارب بدافع (اللى نعرفه أحسن من اللى ما نعرفوش) .

وكما أن كل هذه النماذج السابقة تأتى نتيجة ضغوط أحياناً أو إحراج أحياناً أخرى فإن هناك زواجاً يتم كذلك بين الشاب والفتاة من الأقارب نتيجة اقتناع ورضا وتفاهم وانسجام عاطفى طبيعى جداً بغير ضغوط أو توريط أو ترغيب أو إحراج لأحد منهما .

ولكن لماذا يشكل زواج الأقارب مشكلة ؟

بطبيعة الحال هناك مقدمات بارزة وواضحة تؤدى إلى تلك النهاية المؤسفة لحالات كثيرة من هذا النوع من الزواج فالزوج والزوجة يشعران من البداية بأنهما مناط بهما مهمة محددة مما يعمق إحساس كل منهما بأن شريك حياته يعد فرضاً مفروضاً عليه لاعتبارات اجتماعية أهم . يكفى هذا الشعور وحده ليحس بأنه مقيد بالأغلال فاقد حريته بالإضافة إلى تضحية كل منهما بأحلامه وتطلعاته الشخصية من أجل المحافظة على الشكل العائلى .

كذلك يساور كل منهما إحساس بعدم البهجة لهذه الحياة الجديدة لأنه ليس فيها جديد أو تجديد فهى مجرد تبادل للمواقع داخل نطاق ضيق للغاية فالزواج إقبال على حياة جديدة مع أشخاص جدد وعالم جديد يكتشف فيه الزوجان كل يوم أشياء جديدة . فكم صادفت أعداداً من الشبان لا يمكن حصرهم لا ينظرون إلى فتيات عائلاتهم إلا بنظرة أخوية وكذلك الفتيات ولا يتصور أى واحد منهم نفسه أبداً فى يوم من الأيام زوجاً للآخر تحت أى ظروف أياً كانت ثم ..... ثم تضطره الظروف إلى الزواج من نفس هذا الذى يأباه على نفسه . هل بعد ذلك يشعر بأى بهجة لهذا

الزواج ؟!

كذلك من عيوب هذا الزواج إحساس كل من الزوجين بأنه لا يوجد لهما أسرار خاصة بهما فكل شيء يتفوهان به لأقرب الأقربين يظل يلف ويدور ويرتد لمسامعهما من عدة جهات فليس هيناً على الإنسان إحساسه بأن حياته مكشوفة بهذه الطريقة للجميع فمهما كانت الظروف والأوضاع فالمرء يميل بطبعه إلى أن تشتمل حياته على قدر معين من السرية مهما كشف من أسراره بمعنى أكثر توضيحاً أنه يحب أن يتخفف أحياناً من بعض الأسرار التى تجثم على صدره أو (يفضفض) بالشكوى لإنسان آخر لكنه يتألم حين ينقل هذا الشخص الذى ائتمنه هذه الأسرار لغيره . فهو لم يقدر وجدانياً على كبت هذه الأسرار الشخصية فى الوقت الذى يطالب غيره بالاحتفاظ بهذه الأسرار .

وهذه طبيعة فينا جميعاً نحن البشر وكثيراً ما يتحدث إنسان لغيره بسره ثم يحافظ الآخر عليه أو حتى لو لم يحافظ على هذا السر فإنه يفشيه بعيداً عن مسامع صاحبه ونادراً ما يعود السر لصاحبه من مصادر أخرى لكن فى زواج الأقارب من المحال أن يخرج السر ويذهب فى الهواء لابد من أن يعود لصاحبه من عدة مصادر داخل العائلة وهو إحساس صعب جداً على المرء وخاصة الأشخاص ذوى الحساسية الشديدة حيث تشكل لهم هذه الأمور معاناة شديدة من الإحساس بعدم الأمان والفوضى فى حياتهم تماماً كالذى يعيش ويأكل وينام داخل حجرة زجاجية شفافه .

ثم أجيء لأحد العيوب الخطيرة فى زواج الأقارب وهى فرض وصاية العائلة على حياة الزوجين ودس أنفها فى خصوصياتهما واعتبار مشكلاتهما الخاصة مشكلات عامة مسموح للجميع بحثها وطرحها على مائدة المناقشات التى لا تنتهى فيتبارى كل كبير وصغير فى العائلة بالإدلاء بدلوه فى كل مشكلة كبرت أم صغرت فى حياة الزوجين وكأن حياتهما صارت مشاعاً لكل من هب ودب ويتناسى كل واحد من أفراد العائلة أنه شخص له حياته الخاصة التى لا يسره تدخل أحد فيها بل ويرفض هذا رفضاً باتاً إلا أنه يتطوع تلقائياً بدس أنفه فى حياة هذين الزوجين بغير وعى منه وقد يغضب من أحد هذين الزوجين إذا نبهه بأنه تجاوز حدوده فى التدخل الذى يعتبر استفزازياً ويشكل هيمنة أو وصاية على الزوجين بغير حق . فكل فرد فى العائلة يعطى نفسه هذا الحق فى المشاركة بغير استئذان كأن ذنب هذين الزوجين أنهما تزوجا من بعضهما .

أما الرواية التى لا تنتهى فى حياة الزوجين من الأقارب فتبدأ حين يعيب واحد منهما فى حق أهل شريكه الآخر وامصيبتاه .. تظل هذه الكلمة تلف وتدور تدوى بين أفراد كل العائلة سنوات بغير نسيان ومع كل دورة من دورانها تستقطب هذه الكلمة معها مزيداً من الآراء والتجريحات الجديدة من كل صنف وشكل ولون مثل قطعة المغناطيس التى تظل تجذب معها فى كل دورة عشرات الأشياء المعدنية فلا الكلام ينتهى ولا الأمور تهدأ ويكون وقع هذا أشد على الكبار ويدب بينهم الشجار وقد يخسر بعضهم البعض بعد سنوات بعيدة من المحبة والوئام وكثيراً ما عرضت أمامى حالات من هذا النوع تقطّعت فيها أواصر المودة تماماً بين أفراد العائلة الواحدة واستبدت بهم القطيعة والكراهية والبغضاء بأكثر مما لو كانوا غرباء عن بعضهم البعض .

وزواج الأقارب كما هو معروف يعد أحد الأسباب الهامة لضعف النسل وهو ما عرف حديثاً أما حديث الرسول ﷺ فى هذا الشأن فهو ما معناه « لا تنكحوا القرابة فإن الولد يخلق ضاويا » — أى يخلق هزيلا — وهو صلوات الله وسلامه عليه سابق لعلوم العصر كلها بعلم الله الذى يتحدث به وينصح .

وعلماء الوراثة يؤكدون على أن زواج الأقارب يولد الكثير من الصفات السائدة فى العائلة الواحدة فتتصف العائلة الواحدة بمرض معين دون ما حولها فينصحون بعدم تزويج الأحفاد من بعضهم البعض إذا كان الأبوان من نفس العائلة لأن هذا التكرار سيؤدى إلى زيادة الصفات الوراثية المدمرة وكثيراً ما قرأنا عن أمراض عصبية أو جنون متأصل كان يضم عائلات القياصرة الرومان والملوك الأباطرة لإصرارهم على الزواج من بعضهم لكيلا تختلط دماؤهم بدماء عامة الشعب .

كأنه لا يكفى أنه زواج قائم بغير دعائم بل أيضاً يكون عنصراً مساعداً على تأصل الأمراض الوراثية والشىء المؤلم فى طلاق الأزواج من الأقارب أننى دائماً أواجه بعاصفة من التوسلات والرجاءات من كافة أقارب الزوجين بأن أتجنب تماماً مناصحتهما أو السعى للتوفيق بينهما حيث إن كل المحاولات ستذهب أدراج الرياح بعد أن تكون بالنسبة لهما مجرد مسكن ينتهى مفعوله بعد أيام أو أسابيع قليلة على الأكثر وأن الأفضل أن أنهى هذا الوضع فوراً لإنقاذ الأقارب من الطرفين قبل أن تنفجر المواقف وهكذا تصل إلى عكس المرجو تماماً من هذا الزواج وهو أن تماسك

العائلة سيكون بالطلاق لا بالزواج فهل أملك بعد ذلك أن أدعى أن زواج الأقارب نعمة ؟

قد يكون مقبولاً من المرء أن يضحى من أجل شريك حياته بل إن التضحية مطلوبة جداً من الزوجين فى حياتهما الزوجية هذا لاشك فيه لكن أن ينهض الزواج بأكمله على تضحية أحد الزوجين أو هما معاً بأحلامهما وتطلعاتهما الذاتية قبل الدخول فى هذا الزواج . فهو انتحار بلا شك .

فوجئت ذات يوم أمامى بشاب صغير لايزال طالباً بالسنة النهائية بإحدى كليات جامعة طنطا ومشكلته تتلخص فى أن والده يمارس عليه كافة ضغوطه من أجل أن يتزوج بأرملة أخيه المتوفى منذ عام أو أكثر قليلا لمنع شخص آخر يحاول الزواج منها . وتتحدد جوانب المشكلة فى أن أرملة أخيه هذه أمية تجهل حتى القراءة والكتابة حيث إنه هو المتعلم الوحيد بين إخوته الذين يفلحون الأرض مع أبيهم .

الشيء الثانى أنه لا يستريح أصلاً لطباع أرملة أخيه وينفر حتى من حديثها معه رغم حبه لأولاد أخيه .

البعد الثالث للمشكلة أنه مرتبط بزميلة له فى الدراسة وسيتقدم لأهلها بعد التخرج مباشرة حيث تواعدا على هذا ومتفقان فيه إلى أبعد الحدود لكنه لن يستطيع التقدم لأهلها بغير دعم والده له وإذا لم يدعمه والده فلن يتقدم لها . ووالده لا يعترف بكل هذا وسيحرمه من كل ما يستحق إذا شق عليه عصا الطاعة أو تمرد على الزواج من أرملة أخيه وضيع عليه هذه المصلحة . ولما لم يجد عندى مخرجاً مناسباً من هذه المشكلة المعقدة تصرف من وحى شعوره بالأزمة بأن ترك الجامعة وسافر للعمل فى الخارج ليمتلك الإمكانات الكافية للتقدم لأهل فتاته وبقى بالخارج عامين ثم عاد ليجد أن أحد إخوته وهو متزوج قد تزوج أيضاً من أرملة أخيهم وضمها إلى زوجته فى الوقت الذى وجد فيه أن زميلته بالجامعة قد أنهت دراستها وتزوجت أما هو فلم يحقق من خلال سفره نجاحاً كبيراً . لقد خسر كل شيء خسر أهله وخسر زميلته وخسر سنوات من عمره بلا جدوى كذلك لم يعد بإمكانه العودة للدراسة لإنهاء السنة المتبقية من دراسته بعد أن تزعزعت ثقته بنفسه بشكل مخيف ولم يدرك إلا متأخراً أن وفاة أخيه لم تكن إلا مصرعا له ولكن بشكل بطيء .

أما المفاجأة الحقيقية لى فى الموضوع فكانت أن أخبرنى بأن زواج أخيه من أرملة أخيه الآخر صار هشاً ومفعما بالمشكلات الحادة وعلى وشك الانهيار رغم أنها حامل فى شهرها الأخير لكننى لم أعرف بعد ذلك فصول القصة فلم تجمعنى به الظروف لأقف على تطورات هذا الموضوع .

أما النموذج المقابل فكانت لحالة رأيت فصولها كاملة وعايشت معهم تطوراتها فهى لرجل توفيت زوجته عن ثمانية وثلاثين عاماً تاركة له بنتاً فى الثامنة عشر من العمر وولدين أحدهما فى الرابعة عشر والآخر فى العاشرة وبذل محاولات عديدة بعد خمسة أشهر للزواج من امرأة أخرى لكن أبناءه قابلوا هذا القرار بالرفض والبكاء على أمهم واحتدمت المناقشات فى العائلة إلى أن استقر الرأى على أن يتزوج بأخت زوجته الراحلة رغم تحفظ حماته بسبب قسوته التى كانت تعرفها عنه فى معاملة ابنتها الراحلة . وتقبل أبناؤه زواجه من خالتهم بالرضا لما بينهم من تآلف قديم وتقارب فى السن حيث أنها فى الرابعة والعشرين من العمر إلا أن هذا الزواج بكل أسف لم يدم أكثر من سنة واحدة كانت كلها صراعات بين جميع العائلة وحاولنا مرات عديدة رأب التصدعات المتوالية فى زواجهما لكن مفاهيمه كانت ثابتة وخالية من المرونة فكانت هى الصخرة التى تحطم عليها هذا الزوج فقد كان يتعامل معها وكأنها نسخة من الزوجة الأولى ونسى الفروق الكثيرة بينهما حيث أن الأولى كانت تحبه من البداية واستطاعت أن تضحى من أجله كثيراً أما الثانية فوضعها كان مختلفاً فهى لم تتزوجه عن حب بل كان الزواج تضحية كبيرة منها من أجل أبناء أختها الذين أحبتهم وأحبوها وربما كان أيضاً من أخطاء الزوج أنه اعتمد فى تصرفاته معها على أن هذا الحب بين أبنائه وبينها يعد وحده كافياً لاستمرار الحياة الزوجية فخلط بذلك بين تضحية الأم وتضحية الخالة .

شيء آخر أن الزوجة الأولى قطعت شوطاً طويلاً حتى فهمت طباعه وتناغمت معها فى حين أن الثانية كانت أصغر منها وأقل خبرة ولم يعطها الفرصة لفهمه بشكل متدرج بل اعتبرها نسخة من الزوجة الأولى مع أنه كان ينظر لها دائماً وكأنها طفلة صغيرة ولا أعرف كيف كان يتصرف بإحساسين متناقضين إلى هذه الدرجة ورغم أنه لم يكن يضرب زوجته الأولى إلا أنه كان يفعل ذلك مع الثانية حتى وصل الأمر إلى أن اتهمته حماته صراحة بأنه قتل ابنتها الأولى كمداً وقهراً وينوى قتل الثانية كذلك

وكان الطلاق هو الحل بعد تفجر الخلافات بين أفراد كل العائلة وانقسامهم على أنفسهم .

ذلك هو زواج الأقارب .

(١٢) المظاهر

حينما يقرأ المرء قصة أو يشاهد تمثيلية عن شاب وخطيبته يكافحان كفاح الأبطال من أجل التغلب على المشكلات القائمة فى طريق زواجهما وتذليل ما يعوقهما من صعاب ، والحب الكبير يؤلف بين قلبيهما ويعطيهما دافعاً عظيماً للمقاومة والنجاح يتأصل داخل المرء إحساس بأن الحب هو أقوى الدوافع فى حياة أى زوجين . أما حينما أرى فى الواقع الفعلى أمامى شاباً وشابة يطلبان الانفصال بالطلاق قبل زفافهما بأسابيع قليلة رغم ما بينهما من عاطفة فى منتهى القوة ماذا أقول ؟! لم أكن أتصور أن هناك سبباً أسخف من السبب الذى سمعته منهما . لكن وبكل الألم والأسى أقول إنه كان هو السبب الحقيقى والوحيد فى هذه المشكلة هذا السبب هو التمسك بالمظاهر . ولا يملك المرء سوى أن يشعر بالخجل من بعض أنماط سلوك قطاعات عديدة فى المجتمع فنحن نميل دائماً للمحاكاة والتقليد بشكل وبائى وبغير داع .

فلا يعقل أن تحل رابطة الزوجية المقدسة بين شاب وشابة لأنه لا يملك إمكانات باهظة لحفل الزفاف مثلاً .

لقد أخذت هذه الحالة كحالة نموذجية يمكن القياس عليها نظراً لأن الزوجين فيها من الطبقة المتوسطة المكافحة . فالعروس تطلب من زوجها حفلاً للزفاف يليق بمستوى أفراح زفاف زميلات لها من الطبقة القادرة ووافق العريس فى البداية لكنه حين عرف الشكل النهائى الذى تريد أن يكون عليه الحفل راجع حساباته فتأكد أنه لايقدر على تكاليف واحد فى المائة من هذا البذخ الذى لا يوجد ما يبرره . فهى تريد أن يحجز فندقاً فخماً لإقامة الحفل ثم قضاء شهر العسل فيه .

أما شهر العسل فنتركه جانباً إذا علمنا أن كل ليلة إقامة فى الفندق تساوى مرتب هذا الزوج فى شهر كامل ولنرى حفل الزفاف فقط . إنها تريد إقامة الحفل فى

هذا الفندق حول حمام السباحة يدعى فيه مطرب شهير يتقاضى آلاف الجنيهات وطبعاً تسانده فرقة عازفين ماهرة غالية الثمن بالإضافة إلى راقصة ولابد أن تكون لولبية مع فرقة عادية للربط بين الفقرات الفنية مع مطربيهم الصغار . ولابد من أن يواكب دخولهما إلى الحفل فرقة تقوم بالزفة فقط وتنتظرهم عند باب النادى بعد نزولهما من موكب السيارات الذى يكون قد طاف بهما المدينة كلها ويصور كل ذلك بالفيديو بالإضافة إلى مئات الصور التى تؤخذ لهما بالفلاش من أجل ألبوم الذكريات على أن يسبق ذلك طبعاً الذهاب للكوافير ثم التوجه إلى ستوديو للتصوير من أجل صورة العمر التى يتحتم أن تكون كبيرة جداً وبالألوان وفورية بحيث أنه بعد انتهائهما من الزفة تسبقهما هذه الصورة بعد أن يكون المصور قد قام بتحميضها وطبعها وتكبيرها ووضعها داخل برواز بالحجم الطبيعى ثم توضع فوق حامل بجوار كوشة العروسين ليراها المدعوون بعد ذلك بالمقلوب على صفحة ماء حمام السباحة أما تورتة الفرح فيجب أن تكون عدة طوابق وإلا فإن صويحباتها المتحذلقات سيأكلن (وشها من الكسوف) بدلاً من أكل التورتة ذات الطابق الواحد .

أما فستان الفرح فلابد من أن يكون (حاجة تشرّف) فلا يقل ثمنه عن ثمن حجرة الصالون . على أن يواكب إعداد فستان الفرح طبع كروت دعوة للمدعوين بعدة مئات من الجنيهات بالإضافة إلى نشر هذا الخبر السعيد فى باب أخبار المجتمع بالصحف أما المأكولات والمشروبات فأمرها فى غاية البساطة فثمنها هى أيضاً لايزيد عن ثمن حجرة الأنتريه . بعد ذلك تبدأ رحلة شهر العسل السعيد . . .

اعطونى أى إنسان مجنون فى هذا العالم يتصور أن هذه طلبات زوجة موظفة مكافحة وزوجها موظف مثلها وراتبهما معاً — على ضآلته — هو الذى سيعيشان به بعد ذلك ومع ذلك جعلت من هذه الطلبات شرطاً لزفافهما وإلا فليؤجل هذا الزفاف لحين توافر الإمكانيات!!

لقد قضيت شهراً كاملاً فى محاولات متفرقة للإصلاح بين هذين الزوجين كنا نتوصل فى كل جلسة منها إلى اليسير جداً من التنازلات ولكن بعد تزايد الشروخ فى علاقتهما معاً أصبح من العبث استمرار هذا الزواج .

إنها الرغبة فى التقليد والمحاكاة بغير تفكير ، وتقليد من ؟ لا أحد يعرف !! فالتقليد على حسب ما تعودنا يكون فى اتجاهين . إما الاتجاه لتقليد المجتمعات الغربية

كأوربا وأمريكا وإما الاتجاه للعودة لأصولنا وتقليد السلف الصالح والمذهل فعلاً أنه فى كلتا الحالتين لا يوجد هذا البذخ الأحمق .

لقد دعوت ذات مرة صديقاً ألمانياً وزوجته ــ كانا فى ضيافتى ــ لحضور حفل عقد قران قمت به وذلك على مسرح مدينة طنطا وجلس هذا الضيف وزوجته فى أحد بنوارات المسرح ليشاهدا هذا الحشد الهائل من الجمهور الذى اكتظ به المسرح بمقاعده وبنواراته وطرقاته وظن هذان الضيفان أن العروسين من الأهمية بمكان بحيث أن الدولة سمحت لهذه الجحافل من الناس بحضور هذا الحفل . وبعد الحفل وفى المساء بالبيت أثناء تناول العشاء سألنى الضيف الألمانى ببراءة وقال لى : هل المشروبات الغازية والجاتوهات التى أكلناها الليلة فى الحفل الذى حضرناه بالمسرح تتحمل الحكومة تكاليفها ؟ فقلت له إطلاقاً إن العريس هو الذى يتحمل هذا . وهنا فوجئت بالضيفين ينظران لبعضهما وقد تجمد وجهاهما من الذهول . ثم أعاد السؤال بشكل أخر ليحصل منى على نفس الإجابة ولم يعلق إلا بكلمة واحدة قائلاً وهل بعد ذلك تدَّعون أن بلادكم فقيرة ؟! إنهم فى بلادهم لا يعرفون هذا الهوس لا فى الاحتفالات ولا فى عمليات حشد وتجهيز مسكن الزوجية بأغلى الأثاثات من أول يوم للزواج . فالأثاث عندهم يشترى على مراحل وقطعة قطعة .

وقد نسأل أنفسنا . هل يمكن الاحتفال بالزفاف بغير مثل هذه الحفلات والأفراح ؟

تتفاوت الإجابة بين طبقات المجتمع عن هذا السؤال بحسب إمكاناتها . فنحن متفقون على أن الإشهار ركن هام من أركان الزواج لا ينبغى تجاهله ولكن يجب أن نتفهم الأمور وأن نأخذ الدين ككل فلا تحكمنا الأهواء فى أجزاء منه أو تتضارب تلك الأجزاء مع بعضها البعض فمثلما يكون حرصنا على إشهار الزواج يكون أيضاً حرصنا على طاعة أوامر الله فلا نبذر ولا نسرف .

﴿ إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً ﴾ .

وقد نسمع أحياناً من عواجيز الفرح قولهم إنه كان الأجدر بالعروسين التصدق بهذه الأموال المنصرفة بغير حساب على الفقراء والمساكين أو التبرع بها لعمل خيرى يستوعب مطالب عدد كبير من المحرومين فى المجتمع .

قد يكون هذا الرأى مقبولاً فى الطبقات الرفيعة المستوى لكنه فى حالة الطبقات الضعيفة المستوى لا أقول لهم تصدقوا على الفقراء ولكن أقول لهم تصدقوا على أنفسكم بهذه المبالغ الطائلة . فنحن جميعاً مدعوون للحفل ونحن نعرف جيداً ظروفكم وأنكم تكبدون أنفسكم أكثر من طاقتكم بكثير . نحن نعرف أنكم لستم سعداء كما تحاولون إيهامنا أو إيهام أنفسكم . نحن نعرف أنكم بعد هذه الليلة ستقضون أسابيع وشهوراً وربما سنوات تلعقون جراحكم وتربطون الأحزمة ولو بشكل غير مباشر — تعويضاً لخسائر هذه الليلة وحدها — فلا يعقل أن موظفاً مبتدئاً يكون سعيداً حين يصرف فى ليلة واحدة ما يتقاضاه من راتب شهرى فى مائة شهر لقد دهشت ذات يوم من تمسك عروس برأيها فى إضافة أشياء لا لزوم لها فى حفل زفافها حتى أنها خيرت زوجها بين هذا وبين الانفصال بالطلاق قبل الزفاف ودهشت أكثر من أنها وافقت كحل وسط على الاستغناء عن حجرة الطعام لإضافة ثمنها على تكاليف الفرح ثم بعد ذلك ستكافح مع زوجها فى عمل جمعيات شهرية مرهقة لتدبير ثمن حجرة طعام تستمر فى تسديد أقساطها أشهراً وسنوات . تلك هى العقلية السائدة والكثيرات جداً منهن متعلمات ومثقفات والمفروض أنهن من أولات الألباب .

ويجب علينا إذا كان الزوج ثرياً وقادراً على مثل هذه الأفراح الباهظة أن نقول له اتق الله فى غير القادر من الشباب أقرانك ، فأنت لا ترضى بأن تبدل سعادة الآخرين بشقاء لمجرد أنهم عجزوا عن ملاحقتك فى الإسراف فى أفراحهم محاكاة لك وتأسياً بك كما لا يرضى المولى عز وجل بشيء من هذا التبذير فإذا طلبت عروسك منك هذا سفهاً منها وعدم تقدير للمسئولية فردد فى نفسك فوراً .

إذا نطق السفيه فلا تجبه فخير من إجابته السكوت

وإذا كانت عروسك تطالبك بهذا البذخ والإسراف كنوع من الشماته فى غيرها من الفتيات أو الفتيان فإنك لا يليق بك كرجل أن تكون من الشامتين فهذا ضعف ووضاعة نفس . فأنت تحتفل لتفرح وتبتهج لا من أجل الشماتة والتشفى .

ولغير القادر على هذه المظاهر أقول إن تمسك عروسك بهذه المظاهر لهو عنوان حقيقى وبالغ التعبير عما سيكون عليه شكل الحياة بينكما . فحين تدفعك عروسك للاستدانة من أجل مظاهر كاذبة فأولى بك ثم أولى أن تعرف قدر نفسك وتضع حداً

لهذه المهزلة فوراً .

ليس عيباً أن يكون حفل الزفاف متواضعاً وفى مستوى معيشة الزوجين . ليس عيباً أبداً ، لكن العيب كله فى أن نربك أنفسنا بديون نعجز فيما بعد عن تسديدها من أجل مظاهر زائفة . إن حفلات الزفاف أصلاً مكلفة بغير البذخ والمبالغة فى الإسراف وذلك بسبب طبيعة مجتمعاتنا وعادتنا غير المسئولة ، وتظهر هذه المشكلات حين يكون الحفل فى أحد الأماكن السياحية أو الفنادق حيث يتفق العريس على حجز أماكن لمائة مدعو مثلاً فيفاجأ فى المساء بستمائة مدعو حيث أن كل مدعو يدعو هو الآخر ــ ومن تلقاء نفسه ــ أى قريب أو صديق أو جار له ، هكذا بغير استئذان وبغير اكتراث أو تقدير لظروف العروسين وظروف الفندق ومدى ما يسببه من إحراج للجميع والمدعوون أنفسهم لن يقبلوا أى لوم وفى نفس الوقت لن يتفهموا موقف العروسين ويضطر العروسان إلى تفادى الإحراج بدفع تكاليف مضاعفة وباهظة للفندق . وقد يعجزان عن استعاضتها سنوات كاملة .

إن أى شاب أو شابة من المدعوين لمثل هذه الحفلات يصاب فوراً بالإحباط إذا فكر فى تكاليف هذا الحفل ، ويتردد كثيراً فى الإقبال على الزواج . ولذلك يهرب الكثير من الخاطبين من إتمام الزواج ويكتفى الشاب بما هو غارق فيه من ديون فى مرحلة تأثيث الشقة ، هذا طبعاً بعد مرحلة البحث عن الشقة نفسها وبالتالى فإن التقاعس عن إتمام الزواج وإطالة الفترة ما بين عقد القران وإتمام الزفاف يؤديان إلى التفرغ لإثارة المشكلات السخيفة التى تقع يومياً بين الأزواج وأفاجأ بهما من حين لآخر أمامى يطلبان الانفصال ثم يتم الصلح ثم بعد عدة أسابيع يعاودان الكرّة من خصام ثم صلح ثم خصام وهكذا .

وألاحظ دائماً أن مثل هذه النوعيات تتمسك برأيها بشدة فى مسألة المظاهر هذه ، ولا يفت فى عضدها ماتلاقيه من مشاكل وخلافات فالكل يتمسك برأيه وينتظر دائماً حلولاً فوقية من الحكومة فى الوقت الذى هم فيه أنفسهم لا يرحمون أنفسهم . فالسوق ملىء بأنواع الموبيليا ولكن يجب شراء أغلاها جميعاً لأن الناس (ستأكل وش العروس) .

وفى السوق كافة أنواع المنتجات التى تناسب كل دخل ، لكن لابد من أن يكون السجاد غالياً والصينى مستورداً من أقصى بلاد الدنيا لأن المظاهر أهم من كل

شيء ويجب على الزوج طبعاً أن يوقع على قائمة باستلام هذه الأثاثات الغالية وإلا قامت الدنيا ولم تقعد لأنه لابد من التفاخر أمام الأقارب والعقارب بهذه القائمة وهذا الجهاز .

كما أن وثيقة الزواج يكون شكلها ألطف كثيراً حين يكون مؤخر الصداق فيها آلاف مؤلفة ولا يهم الرسوم الهائلة التى ستدفع عن هذه الآلاف لأن التباهى والتفاخر مبدأ تتضاءل أمامه كل المبادىء الأخرى .

والسؤال الذى يفرض نفسه بإلحاح هو ... هل فعلاً تكون العروس سعيدة بهذا التبذير فى المظاهر ؟

هناك فتاة توائم بين رغبة التفاخر داخلها وبين إمكانات زوجها ، فهى تعتبر أن إمكاناته فوق كل اعتبار وأن أمواله هى أموالها وهذه نسبة كبيرة فى المجتمع ولله الحمد .

لكن هناك فتاة — وهى مجال بحث هذه المشكلة وغالباً تكون ممن أفسدهن التدليل — لا يهمها من أمر زوجها شيئاً وتعتبره مسئولاً عن طلباتها بأى طريقة بل وتهديها ضحالة تفكيرها إلى الاعتقاد بأن إسراف الزوج يقوم دليلاً على كرم هذا الزوج فيما بعد أو بخله معها متناسية أن إرهاق الزوج معنوياً وإرباكه مادياً يعد مؤشراً فاضحاً لاستهتارها بمستقبلهما معاً وعدم نضجها وحرصها على مصلحة زوجها . إنها فقط يسعدها أن تجلس بجوار عريسها فى الفرح مستمتعة بانبهار وحسد البنات لها وإعجابهن بعريسها وندمهن على ضياعه منهن . إنها تعرف جيداً هذه الأحاسيس فقد عايشتها كثيراً والآن جاء الدور عليها لتستمتع بحسد وندم الأخريات .

أقول لهؤلاء الأخريات لا تحسدن أحداً ولا تندمن على هذا العريس الذى أنفق وأسرف وتعالين لتسمعن بأنفسكن ما أسمعه أنا عند بحث خلافات مثل هذين الزوجين عندما يكون الطلاق هو الحل لخلافاتهما . فالمشكلة التى تواجهنا فى هذه الحالة ليست مشكلة أسباب هذا الخلاف ولا دوافعه ولا نتائجه بل تكون المشكلة آنئذ هى تمسك هذا الزوج باسترداد كل الذى دفعه من أموال فى هذه البهرجة الفارغة التى فرضتها عليه العروس بغير وعى .

(١٣) الوقوع فى البئر الخطر
(العلاقة بأهل شريك الحياة)

علاقة أحد الزوجين بأهل شريكه في الحياة علاقة من نوع خاص جدا وليس كما قد يتصورها البعض علاقة عادية أو بسيطة . وكثيرا ما كنت أحاول وضع هذه العلاقة تحت البحث والدراسة لما فيها من أمور محيرة . لكن يصعب البحث فيها دون الاصطدام بمتناقضات كثيرة .ربما للحساسية الشديدة التي تحكم هذه العلاقة بوجه خاص ، تلك الحساسية التي تستمر أحيانا طول العمر في بعض الأوساط والتي تتطلب باستمرار مراعاة الحذر فيها وتوخّي الدّقة فى حفظ المسافات بين الأفراد بعضهم البعض . فهي علاقة لاتسمح إطلاقا بالحرية الكاملة للحركة خاصة أنها تمس أقرب الناس لنا .ولهذا أعتبرها مشكلة هامة من المشكلات التي تستحق الدراسة وكما أشرت فإن بحثى في هذه المشكلة يجهدني بغير التوصل الي حل ناجع في معظم الأحوال ولهذا أرى أن الوقاية هنا خير من العلاج . فالاهتمام بالوقاية أكثر حكمة من البحث عن طريق العلاج . لأنه بعد الوقوع في هذا البئر الخطر لايمكن الرجوع الي نقطة البداية كما لايمكن بقاء الحال علي ما هو عليه .

وبما أن شيئا من هذه العلاقة لا يمكن رجوعه الي أصله فالأجدر بنا بحث طرق الوقاية قبل السقوط في البئر لأن كل عمليات الترميم التي تتم بعد ذلك لهذه العلاقة مقضى عليها بالفشل . وإن نجحت فهي تظل هشة تطيح بها أقل عاصفة من عواصف الشك أو سوء الظن أو سوء التفاهم والذى لابد من أن يحدث كثيرا فى الحياة الزوجية ولعل هذا السبب وحده يعد سببا كافيا لأعتبر هذه المشكلة من مشكلات ما قبل الزفاف وللحق أقول إننى لم أكن أنوي الزج بهذه المشكلة ضمن مشكلات هذه الفترة لأنها تظهر أوضح وأعمق بعد الزواج وبعد الإنجاب . لكن هذا لاينفي وقوعها في فترة ماقبل الزفاف ولكن سمات هذه الفترة تقترب في أغلب الأحيان من المثالية الشديدة مما يؤجل الوقوع في هذا البئر .

وعلى ذلك فحديثي عن الوقاية التي هي أهم بكثير من العلاج يدفعني دفعا

لأعتبر أن هذه المشكلة جزء لايتجزأ من اهتمامي بمشكلات ما قبل الزفاف حتى نأخذها بشكل تحذيري أو وقائي . فلا تفوتني هذه الفرصة حيث أعتقد أن الاهتمام بهذا الكتاب سيكون أكثر من الشباب الذي لم يقبل بعد علي إتمام زواجه .

يخطىء الكثير من الزوجات والأزواج فى الاعتقاد بأن علاقته بأهل شريكه يمكن أن تكون شبيهة بعلاقته بأهله هو . هذه مغالطة يجب الانتباه لها .

ووجه الخطأ هنا هو في عدم حساب المسافات جيدا بينه وبين كل فرد في عائلة شريكه فيجب أن يعطى لكل شخص قيمة معينة لايزيد فيها ولا ينقص منها . وهي مهمة ليست سهلة كما أنها أيضا ليست من الصعوبة بالدرجة التي تعوقه عن خوضها . ولا مفر من هذه المهمة لما لها من انعكاس مباشر ومؤثر في حياة الزوجين فيما بعد ولآماد بعيدة سلبا أو إيجابا . وقطعا يختلف الوقوع في بئر العلاقة بأهل شريك الحياة باختلاف البيئات وباختلاف الأشخاص بل وأحيانا باختلاف الظروف المحيطة بالأسرتين .

فمما لاحظته أن الشخص المثقف ثقافة راقية أقدر دائما علي تجنب الوقوع في هذا البئر أما إذا سقط فيه فهو السقوط فلا رجوع للوراء إطلاقا في هذا الأمر . فإذا أخطأ أحد الطرفين في حق الآخر انتهي كل شيء تقريبا ونسي كل منهما كل شيء إلا شيئا واحدا هو الإهانة. تلك الإهانة التي تبقي محفورة علي صخرة الكرامة الذاتية والتي تعلق علي مشجبها كل التصرفات التالية لهذه الإهانة ويحمّل لك منها الكلمات أكثر بكثير جدا مما تحتمل وتتردي الأمور بسرعة مذهلة . ولذلك فمشكلة كهذه لاتحدث إلا نادرا عند ذوى الثقافة الرفيعة والملكات الراقية وإذا حدثت فهي تكفي ولاتحتاج لمشكلات أخرى تساندها لتكون وحدها سبب فصم العلاقة الزوجية وحينما أستخدم لفظ الإهانة أو أي مرادف له في تلك العلاقات في الأوساط الراقية فكريا وثقافيا فأنا أعني الإهانة بمعناها الواسع وليست الإهانة اللفظية فقط فالشك أو سوء الظن في النيات إهانة ، وتخطّي الشخص دون التوقف عنده أو تجاهله أو عدم وضعه في الاعتبار الذي يليق به إهانة وهكذا تتدرج الإهانات حتى تصل الي الإهانة اللفظية المباشرة وهي كما قلت نادرة الحدوث هنا .

فالوسط الراقي يتصف أصحابه بالحساسية المفرطة والتقدير الشديد للكلمة الصادرة من أي شخص ولذلك فكل من يتكلم يضع في اعتباره كل هذه المحاذير

ويعرف تماما متي ينفعل ومتي يضغط علي «فرامل» هذه الانفعالات ولذلك كما قلت فالإهانة البسيطة في أوساط أخرى تعتبر هائلة في هذه الأوساط لأن الشخص المهان يدرك تماما أن الشخص الذى أمامه لايتصرف عن جهل أو لايعرف أبعاد الإهانة .

وربما يكون هذا هو المبرر الحقيقي لعدم التسامح في هذه الأمور وهكذا يحدث التضارب العكسي فكلما تدرجنا إلي مستويات فكرية أو أخلاقية أو تعليمية أقل كلما زاد اللجاج والتجاوز للحدود والخروج عن الأدب من الطرفين بشكل متكافىء حتي نصل الي المستويات الأدني تماما والتي لاتشكل هذه الإهانات بالنسبة لهم أيّة مشكلة حيث تكون هذه الإهانات جزءاً لايتجزأ من حياتهم اليومية مستخدمين أقوي الكلمات وأقوى اللكمات ثم تستمر بعدها الحياة عادية بإهانات جديدة وخناقات جديدة مما يذكرني بقول بيرم التونسي رحمه الله حيث يقول :

من هفوة أو كلمة هايفة .. نتحمق ونقوم
نسب وندب ويدور العراك بالشوم
وكل محموق وله فرقة تقوم بهجوم
من قبل ما تعرف الظالم من المظلوم
تبقى الشرارة حريقة والسحابة حسوم
لا شركة تنجح ولا عيلة صفاها يدوم

أصحاب هذا المستوى يتعاملون فى البداية مع (عريس) ابنتهم معاملة غاية فى الرقة والذوق وكأنه أمير أو ملك ويكون اعتزازهم وتفاخرهم به كبيرين إلى أبعد الحدود ولكن بعد عدة أشهر تكون فى غاية الدهشة من صور التعامل معه . تطاول ما بعده تطاول من أصغر فتى من الأسرة إلى أكبر شخص فيها . فإذا احتد على زوجته مثلا فوجىء بستة أفراد من أهلها يتناوبون الرد عليه بإهانة وتطاول وسوء أدب لا مثيل لها ، فإما يثأر لكرامته وإما يكتفى بهذه الردود ويكتفى بتكريس القطيعة معهم وهو أضعف الإيمان ولكن المشكلة التى تطرأ على هذا الوضع بعد ذلك هى منعه زوجته من زيارة أهلها وعدم تقبل هذا الوضع منها ويظل الموقف متفجرا بشكل مستمر ، فهى إما تظل متذمرة ومتمردة عليه فتبقى جذوة الخلاف مشتعلة مما لا يبشر بالخير ، وإما تتظاهر أمامه بالاستكانة والموافقة وتتزاور هى وأهلها بشكل عادى تماما فى غير وجوده وتستمر هذه الأوضاع المغلوطة فترة حتى يكتشفها وتقوم

الدنيا من جديد ولا تقعد بعد ضياع الثقة بينهما . وقد تكون أمينة معه وتحفظ غيبته ولا تتصل بأهلها لكن أهلها أنفسهم لن يقبلوا بالاستمرار طويلا على هذا الحال وسيطالبوا بحقهم فى رؤية ابنتهم وكسر هذا الحصار المفروض عليها ، وبذلك تبدأ جولة جديدة من الصراع تنتهى بمزيد من الإهانات والتجاوزات والتطاولات والقطيعة .

ومثل هذه الخلافات تمثل صداعا مستمراً لى لكثرة تكرارها وتردِّيها من سىء لأسوأ فى كل مرة وعدم حسمها . فهى حقا لا تُحسم . ألم أقل إن السقوط فى هذا البئر كارثة .

أهل الزوج :

تخطىء الكثيرات من الزوجات حين تظن أن زوجها حين يتكلم معها عن أهله بشىء من التبرم والضيق أنه يكره أهله أو يمكن أن يسمح لها بالتحالف معه ضدهم أو حتى مجرد أن تتكلم عنهم بسوء . ولذلك تتسرع الكثيرات منهن — ربما إرضاء له — بالإدلاء له برأيها فى أهله أو ذكرهم بأى تجريح . قد يقبل الزوج هذه المشاركة الحمقاء فى لحظة ثورته ضد أهله لكنه سيشمئز حتما من زوجته بعد أن يهدأ ويشرع فى إنصاف أهله منها . هذا الموقف سيخلق اقتناعا لدى الزوج بأنها تكره أهله وتتجنى عليهم وتتمنى أن تقطع الصلة بينه وبينهم مما يجعله يسعى دائما إلى استرضائهم على حسابها مهما كانوا مخطئين فى حقها ولهذا فأنا أهيب بأى زوجة حديثة ألا تبدأ حياتها الزوجية بهذا الخطأ اللعين .

يحدث هذا فى كافة الأوساط — مع الأسف — دون تمييز وبدرجات متساوية . لكن فى الأوساط تحت المتوسطة والأوساط الدنيا يحدث ما هو أسوأ من هذا بكثير حيث لا تكتفى الزوجة بالإيعاز لزوجها بما تراه ضد أهله بل تدخل الميدان بغير تردد وتسىء إليهم بألفاظ فيها تجريح وتطاول تنتهى بهزيمتها فتستجير بزوجها ليرد لها اعتبارها الذى أهدرته برعونتها وعدم تقديرها للأمور فلا تجد من زوجها مجيرا ، فهو إذا لم يكن محايدا فسيكون ضدها وهنا لا تجد الزوجة لها من سبيل سوى ركوب موجة الطيش إلى منتهاها وترك منزل الزوجية لجوءا لأهلها ظنا منها أنها بذلك تضرب عصفورين بحجر واحد ، تثأر لكرامتها وتحرجه مع أهله لكن هذا التصرف منها يوسع

دائرة التدخلات حيث تثير أهلها ضده وضد أهله بلا مبرر ، وتخلق كراهيات جديدة هى وزوجها فى غير حاجة لها .

إن الزوجة العاقلة هى التى تدرك خطورةالسقوط فى بئر العلاقة بأهل زوجها مهما كانت الظروف والملابسات تغريها بهذا التصرف ، فماذا تنتظر من تطاولها سواء بالألفاظ أو بالسلوك المعادى أو المشاغبة مع حماها أو حماتها ؟!

هل سيصفق لها الناس فخرا بها لأنها سلكت طريق التمرد والعصيان وإساءة الأدب مع الكبار ؟!

وهل تنجح بعد ذلك كله فى المحافظة على علاقة طيبة بزوجها بعد أن أهين أهله سواء على المدى القريب أو البعيد؟! الزوجة العاقلة فعلا هى التى تدرك كل هذا قبل وقوعه وبذلك تنقذ السفينة قبل الغرق وتضع حدودا لهذه العلاقة تلزم بها كل إنسان فيها أن يعرف موقعه بلا تجاوز .

أهل الزوجة :

يخطىء الشباب الصغير كثيرا حين يتصور أنه بعقد قرانه على عروسه أصبح له الحق فى أن يصول ويجول معها . متذرعا بأن الشرع السماوى يعطيه الحق فى هذا وهو بذلك يدل على سطحيته وعدم درايته مطلقا بشىء من الشرع السمح العظيم . وكلما امتثلت زوجته لأحد أوامره الخرقاء أحس بالزهو والسيادة وتمادى فى تسلطه وغطرسته مضفيا على نفسه أهمية لا وجود لها ومبررا عجزه بوثيقة زواج يضعها فى جيب قميصه ليراها الناس ويعرفوا أنه صار رجلا ، وكلما ازدادت زوجته إذعانا له ــ تجنبا للمشاكل ــ كلما ازداد بدوره عنجهية وغرورا ساجدا لله شكرا على أن أتى به للدنيا ذكرا وليس أنثى . وحين أناقش مع شاب كهذا مشكلته مع زوجته أشعر بالأسف عليه وله . لأنه مجنى عليه أيضا ، فأنا أمام إنسان تنقصه أشياء كثيرة جدا وتنقصه كذلك خطوات كثيرة جدا كان يجب أن يتخذها قبل أن يفكر أبواه فى أن يزوجاه بدعوى أنهما يريدان أن يفرحا به قبل أن يرحلا عن الدنيا .

حين يترسخ الندم لدى الزوجة يوما بعد يوم من معايشتها لهذه الأوضاع المقلوبة تكره الزواج وتحس بعدم الاطمئنان فيه وبأن استمرارها فى بيت أهلها بغير زفاف أطول مدة ممكنة أفضل كثيرا من سجن النساء الذى ستدخله فى بيت هذا الزوج

الأرعن فى تصرفاته الأحمق فى تفكيره ، وهنا تبدأ الزوجة فى التمرد وكسر هذه الهيبة الزائفة لهذا الزوج غير الناضج . وهكذا يحدث الاصطدام بينهما ثم ينتقل بسرعة إلى صدام بينه وبين أهلها . ففى حالة شاب بهذه الظروف لا يتأخر كثيرا التصادم مع أهل الزوجة .

إن تصادمه أولا مع الزوجة جاء بسبب رغبته الأنانية فى إثبات ذاته على حساب الزواج نفسه معتبرا إياها مجرد امتداد له وأحد العناصر المدعمة لزهوه واعتزازه بنفسه ناسيا أو متناسيا أنها كيان مستقل رغم احتياجها له فى مشاركتها حياتها متركزا حول ذاته وحسب . لكن لماذا التصادم مع أهلها ؟

هناك نقطة هامة غير مرئية لمعظم الأزواج إذا لم نكن نريد أن نتنبه إليها فنحن نغالط أنفسنا ، تلك هى رؤية الزوج لزوجته ورؤية أهلها لها . فالزوج يراها ملكا له ، فى الوقت الذى يراها فيه أهلها جزءا منهم فأبوها مثلا أو أخوها يكرهان أن يراه وهو يأمرها بأى شيء سواء قبل زفافهما أو وهى فى بيته كزوجين حتى لو كانت هذه الأوامر هى إعداد وليمة غداء فاخرة على شرف ضيافته لأهلها . إذ أن هذه الأوامر تعطيهما الإحساس بأنه ينتزع ولايتهما على جزء عزيز منهما مستغلا تأييد الشرع والقانون له فى ذلك دون مراعاة لمشاعرهما مستأثرا بملكيتها وحده .

فنظرة أهل الزوجة إلى الزوج ــ أى زوج ــ يشوبها الحذر والتوجس تحسبا لاستخدامه أى سلطات قهر أو تحكم فى مصير ابنتهم أو إساءة معاملتها ويجب على الزوج أن يضع هذه النظرة فى اعتباره من البدايةويتصرف بطريقة مدروسة تجعل العلاقة دائما طيبة مع زوجته من ناحية ومع أهلها من ناحية أخرى .

ليس صعبا أن يضع الزوج نفسه مكان أهل زوجته والنظر للأمور من نفس الزاوية التى ينظرون منها فكل زوج له أم أو أخت أو بنت يقبل لهما أمورا ويرفض أخرى .

أما النظر من زاوية الزوج فقط فإنها ستؤدى مع الوقت إلى تضاؤل الإحساس بالتكوين كله وبالتالى نمو النزعة الأنانية لدى الشخص وتبدأ مراحل صعبة من التصادم مع الزوجة ثم مع أهلها وكما قلت فى البداية لن يصلح فى هذه الحالة ترميم ما تحطم إطلاقا ولن يكون هناك مناص من الاستمرار والتمادى فى الخطأ والإهانات الذى

يحطم الحياة الزوجية بغير تأخر قد تكون إهانة أهل الزوجة غير كافية كمبرر لطلب الطلاق فى ساحة القضاء لأن القانون لا يعتبر ذلك ضررا وقع على الزوجة بل يعتبر الضرر الناجم عن إهانة الزوجة نفسها هو الضرر المبيح لطلب الطلاق .. هذا صحيح لكن هل يمكن أن يعيش زوجان فى بيت واحد وكل منهما يبحث فى مواد القانون عن فقرة أو كلمة تناسب كل مرحلة من مراحل هذه الزوجية ؟

(١٤) مخلفات الماضى

قرأت منذ عدة أعوام موضوعا نشرته إحدى المجلات النسائية ، وأظنه كان منشورا على صفحتين كاملتين أو ربما أربع صفحات تدعمها آراء متنوعة لبعض طالبات الجامعة اللواتى تم اختيارهن بعناية لمسايرة آرائهن لرأى المجلة . وكان الموضوع يتحدث عن الاختلاط فى الجامعة أو الاختلاط بشكل عام بين الشباب من الجنسين . ولا أخفى أننى صدمت صدمة شديدة جدا من معظم الآراء التى نشرت والتى كانت تمثل هجوما كاسحا على المجتمع الذى نعيش فيه متهمة إياه بالتخلف والظلم وبأنه مجتمع مريض يسمح للشاب بالخطأ دون قيود ، فى الوقت الذى يحرم ذلك تماما على الفتاة ولا يعتبر أن الشاب شريك كامل للفتاة فى زلاتها وسقطاتها .

ومن الحق أن نقول إن هذا العيب موجود فعلا فى أغلب مجتمعاتنا بسبب اتخاذنا الدين مجرد طقوس نؤديها ومظاهر وشعارات نطلقها دون أن تترك أثرا فى الوجدان .

لكن الآراء التى صدمتنى بشدة والتى كانت تتبناها المجلة مع الأسف هى مطالبة المجتمع بأن يساوى بين الفتاة والشاب فى سكوته على الخطأ واعتبار زلاتها أمراً عادياً ، بدلا من مطالبة المجتمع بمعاقبة الشاب على استهتاره بالقيم والتعاليم الدينية الصحيحة .

شيء غريب جدا أن تطلب الفتاة المساواة بالشاب المستهتر فى انحطاطه الأخلاق وتطالب المجتمع تحت مسميات جديدة بأن يغض الطرف عن أخطاء الفتاة وطيشها باعتبار أن مرحلة الاختلاط بين الجنسين لابد أن ينجم عنها أخطاء ويجب على المجتمع أن يتحمل عن الفتيات أخطاءهن فى هذه المرحلة لأن لكل تجربة آثارا جانبية لا يجب أن نلتفت إليها فى سبيل الهدف الأهم من الاختلاط وهو دراسة الفتاة للشاب الذى سيكون شريكا لحياتها فى المستقبل .

بعض الفتيات تتهم الشاب نفسه بأنه معقد ومريض لأنه يتمسك فى انتقائه للزوجة بأن تتوافر فيها البراءة والعفة وتتهمه بالخداع لأنه يشجع الفتاة على الخروج

عن طبيعتها ثم يتهمها بعد ذلك باتهامات شتى معرضا بنفسه عنها بدعوى أنها لا تصلح كزوجة وتعتبر أن نفوس الشباب كلها متاهات لأنه يملأ الدنيا ضجيجا بأنه شباب عصرى فى الوقت الذى يفكر فيه بأسلوب آبائه وأجداده والمعنى مفهوم طبعا .

إن الفتاة يجب أن تقيم علاقات مع أكبر عدد ممكن من الشبان بدعوى دراسة طباعهم أو أخلاقهم لاختيار شريك حياتها فيما بعد قياسا على أن الشاب مسموح له بذلك ، ولكن ومع هذه الآراء يتبادر إلى الذهن سؤال :

هل فعلا يسمح المجتمع للشاب بإقامة علاقات مع الجنس الآخر ، أو على الأقل يتغاضى عن ذلك ؟ أم أن هناك خللا فى بيوت هؤلاء الفتيات يشجع الشاب على مثل هذه العلاقات ويحرمها على هؤلاء الفتيات ؟ وإذا كان المجتمع كما يدّعون ينحاز إلى الشاب فى هذا الأمر ضد الفتاة فماذا تكون إذاً المقومات والضوابط التى نعيش بها فى هذا المجتمع ؟ هل انتقل الخلل إلى كل بيت من المجتمع بهذه الصورة الكئيبة ؟! .

لو كانت هذه النظرة صحيحة بأى نسبة من النسب لتزعزعت أركان المجتمع وتهاوى منذ آماد بعيدة وكان أثرا بعد عين . المجتمع بخير ، والقيم الرفيعة موجودة وكل الضوابط الصحيحة موجودة لكن التطبيق يعوزه الحزم . فأى أب حين يرفض أن تكون ابنته تسلية لأحد الشبان يرفض بالمقابل وفى نفس الوقت أن يتخذ ابنه بنات الآخرين تسلية له .

فمثل هذه العلاقات كلها علاقات تسلية فالإنسان الجاد فى زواجه ولديه الإمكانات للزواج يعرف طريقه جيدا ولا ينتظر مثل هذه العلاقات . الشبان والشابات كلهم يدركون هذا جيدا ولكنهم يتظاهرون بالبراءة أو العبط .

ولو أن الفتاة التى نشرت المجلة التى أشرت إليها رأيها والتى تطالب المجتمع بالمساواة بين الشاب والفتاة فى النظر إلى مثل هذه العلاقات قد طالبت الفتيات والأسر المحترمة برفض ونبذ أى شاب له علاقات سابقة حين يتقدم لابنتهم لاستقامت الأمور وتقدم المجتمع فمن خلال مناقشة مشكلات الأزواج والزوجات فى حالات الخلافات المزمنة يكون للعلاقات السابقة ــ والتى أسميتها هنا مخلفات الماضى ــ أثر خطير جدا على حياتهما الزوجية .

وحين أجدنى ألف وأدور بحثا عن حل لمشكلة زوجين استحال بينهما الوفاق وأجدنى رغم كل ما أفعل لازلت واقفا فى مكانى الذى بدأت منه ــ خاصة إذا كان كل من الزوجين يرفض الإفصاح عما فى داخله . عندئذ أبدأ فى توجيه بعض الأسئلة المدروسة والمنتقاة لفتح باب مخلفات الماضى ولكن بتدرج وببطء ، ونادرا مالا يصدق حدسى . وعند الوصول إلى هذه النقطة تكون المشكلة برمتها بين يدينا . فقد يكتشف الزوج مثلا أن زوجته تحتفظ بهدية أو رسالة أو أى شيء يتعلق بخاطبها أو زوجها السابق أو ارتيادها بعض الأماكن التى يتردد عليها أو أنها لازالت تذكر اسمه أو رقم تليفونه ... إلخ . وهنا تبدأ الظنون تلعب برأس الزوج ويبدأ شبح الماضى فى الظهور فى حياته .

والكثير من الأزواج لا يهتم بمن كان زوجاً سابقاً لزوجته أو حتى خاطباً لها لكنه يركز اهتمامه بشدة على من تعرفت زوجته عليه أو كانت لها علاقة به ولم يتقدم لخطبتها فالزوج أو الخاطب السابق أمرهما معروف لكن هذا الشخص الذى كان خارج دائرة الضوء يحتاج إلى وقفة . وإذا كانت الزوجة قد أخفت هذه العلاقة عنه وعرفها بطريق الصدفة فإن مسار حياتهما يتوقف فورا مهما كان مقدار إخلاصها له حيث يدفعه الشك إلى المزيد من التحرى عن المزيد من الخبايا .

فالشاب ــ أى شاب ــ بما فيه من ثقة أو غرور ــ يفضل دائما أن يكون هو الرجل الأول فى حياة الزوجة . وقد تتفاوت أهمية هذه النقطة من شاب لآخر بحسب المفاهيم والنشأة لكنها لا تصل إلى حد الانعدام مطلقا وتحت أى ظروف . ويجب على كل الزوجات وكل الفتيات المقبلات على الزواج أن تفهم ذلك وتعيه جيدا .

على عكس المرأة التى تستطيع أن تغفر للزوج علاقاته السابقة بل وخطاياه جميعا . ويؤسفنى أن أقول إن هناك شبانا كثيرين يعرفون أكثر منى أن شابات كثيرات يفضلن الشاب الذى له تجارب سابقة عن أى شاب آخر بغير تجارب وعلى هذا النحو يتعامل هؤلاء الشبان مع الواقع من هذا المنطلق .

وكثيرا ما تقابلنى مشكلة سببها زوج تافه قليل الثقة بنفسه ، ملىء بمركبات النقص فى شخصيته أخذ من التفاخر أمام زوجته بمغامراته السابقة وصولاته وجولاته المزعومة مادة لإيقاظ اهتمامها به ففقد بذلك أحد الركائز الهامة لاستقرار حياته الزوجية دون أن يدرى السبب . فأثناء الأزمات الزوجية تأخذ الأمور شكلا آخر

وأكتشف أنا ـــ وليس هو مع الأسف ـــ أن سببها هو الخلفية التى لدى الزوجة عنه والتى تدفعها دائما للنبش فى ماضيه من آن لآخر رغم أنه يؤكد أنها كانت تبدو غير مكترثة بما يرويه لها عن علاقاته السابقة . بل على العكس هناك من يرى أن زوجته أو خطيبته كانت تبدو سعيدة تماما بهذه الحواديت والمغامرات .

أما الشيء الغريب غاية الغرابة فهو محاولة بعض الفتيات انتهاج نفس النهج حيث تحاول شد اهتمام خاطبها بها ببعض التلميحات الرامية بها إلى أنها مرغوبة من الغير أو تحكى له عن علاقة قديمة أنهتها ـــ هى طبعا ـــ لنقائص فى شخصية الشاب الآخر أو ما إلى ذلك .

ووجه الخطأ هنا يكمن فى قصر نظرة هذه الفتاة للمستقبل ، فهى تتعامل مع الخاطب بطريقة بعيدة تماما عن الواقع الفعلى والثابت المتآلف مع عاداتنا وديننا وأخلاقياتنا التى تنادى بترفع المرأة وتعففها عن أى علاقات من هذا النوع .

ومن مصائب الدهر أن هناك أسرا كثيرة لا تفرق بين الخطبة وبين عقد القران فتسمح للخاطب بما تسمح به لعاقد القران ، وتكون النتيجة أن الفتاة تفسخ خطبتها أكثر من مرة بعد أن يقتطع كل خاطب منهم جزءا من سمعتها وكرامتها ويخدش حياءها . فحين يراها الناس مع كل واحد منهم مرات ومرات فى كل مكان وفى كل الأوقات بمفردهما يصبح للناس عذرهم فى أن يكون لكل منهم رأى خاص فى هذه الفتاة .

وكثيرا ما سمعت من بعض الأسر بعد فسخ خطبة ابنتهم ثناؤهم وشكرهم لله على أنها كانت مجرد خطبة وليس عقدا للقران وينسون أن المشكلة أساسا ليست فى كونها خطبة أو عقد قران ولكنها فى عدم التفريق بين الاثنين وكيف نقرن ما بين الخطبة وعقد القران وكل منهما له شروطه ومواصفاته المختلفة تماما عن الآخر ؟!.

فعاقد القران إذا أراد الطلاق عليه أن يدفع للزوجة نصف المهر عاجله وآجله ، بخلاف النفقة الواجبة عليه لها من تاريخ عقد قرانه عليها ، فى حين أن الخاطب عند فسخ الخطبة له أن يسترد كل ما دفعه من مهر أو شبكة دون أن ينقص منه شيء حتى لو كان فسخ الخطبة بناء على طلبه هو[1] فبأى منطق نسوى بين هذا وذاك ونرتب

---

(1) رأى الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه .

للخاطب حقوقا مساوية لحقوق عاقد القران . ومع ذلك فهناك بعض الأسر تسمح — وياللعار — لابنتهم بالسفر وحدها مع خاطبها بحجة النزهة أو الفرجة على أنواع جديدة من الموبيليا فى مدينة أخرى .

وغالبا لا تدوم أى خطبة من هذا النوع فالفتاة المتساهلة بهذا الشكل لا يمكن الاطمئنان إليها وقد لا تنتبه الفتاة إلا متأخرا جدا أن الألسن من حولها تلوك سيرتها ، وعند هذا الحد فقط تصل إلى إجابة عن سؤالها الدائم عن السبب فى أن أكثر من شاب تقدم لطلب يدها ولم يعد مرة أخرى بعد خروجه من بيتهم .

الصداقة والزواج :

كل زوج له أصدقاء وكل زوجة لها صديقات . وفى الحياة الزوجية متسع لهذه الصداقات ولكن الذى نراه دائما هو أن الزوج يحتفظ بأصدقائه بعد الزواج بل وتزداد صداقاته قوة وتألقا مع الزمن حيث تمثل هذه الصداقات له روابط هامة تربطه بالمجتمع الذى يعيش فيه ويتعامل به ومعه والذى تمثل أسرته الجديدة جزءا منه . فى الوقت الذى نرى فيه تقلصا لصداقات الزوجة التى تتخلص شيئا فشيئا من صداقاتها القديمة وتبدأ فى خلق مجتمع جديد وحياة جديدة تعيش فيها مع الزوج وحده وتعرف كل الزوجات أن هذه الطريقة هى أنجح الطرق للمحافظة على بيتها واستقرار حياتها الزوجية . فحصولها على الزوج صعب كما أن تعويضه إذا ضاع منها مهمة أصعب أما استعادة بيتها وأولادها بنفس الشكل الأول مرة أخرى فهى مهمة بالغة الصعوبة خاصة أن الزوج والبيت والأولاد يمثلون أهم ما فى حياتها وربما يمثلون كل حياتها . ولذلك فهى تبتعد عن صديقاتها باختيارها هى كخطوة ضرورية لنجاح زواجها .

ومع هذا كثيرا ما أفاجأ أمامى بشاب وشابة لم يتم زفافهما بعد ومختلفان على هذه النقطة فزوجها يطلب منها بإلحاح ابتعادها عن صديقة معينة لها لعدم اطمئنانه لهذه الصديقة ، فى الوقت الذى ترى فيه زوجته ذلك تعسفا فى استعمال سلطات ليست من حقه طالما هى لاتزال فى بيت أبيها ، وهو لا يقبل هذا الرأى لأنه يرى أن صداقاتها جزء لا يتجزأ من حياتها التى صارت ملكا له وبالتالى فله الحق فى أن يستبعد من يرى استبعاده من حياتها .

وكلاهما معذور تماما فى وجهة نظره . لكنها مشكلة سهلة الحل لأنها ستحل سريعا لو تركت للأيام فبعد إتمام الزواج ستبتعد الزوجة شيئا فشيئا عن هذه الصديقة وعن غيرها من الصديقات لكن المشكلة هى فى تعجل الزوج للأمور فى الوقت الذى تتلقى فيه الفتاة صدمة كهربائية مفاجئة فلم تكن تنتظر أن يحرمها الزواج من صديقاتها كما أنها لا تتصور أنها ستفقدهن فى يوم من الأيام ، وهذا شىء طبيعى فكم خسرنا جميعا أصدقاء على امتداد رحلة عمرنا لم نكن نتصور أن ننساهم أو ينسونا ولكن من لطف ربنا أنه يمنحنا التكيف مع كل مرحلة من مراحل الحياة بأصدقاء آخرين وبإحلال وتجديد تدريجى .

فمسألة تدخل الزوجين فى صداقات بعضهما البعض مسألة معروفة وتقابلنى كثيرا ، وكما قلت يسهل حلها إذا كانت تقف عند هذا الحد فقط لكن فى أحيان كثيرة تتشابه أعراض هذه المشكلة مع أعراض مشابهة تقابلنى فى مشكلات ما قبل الزفاف يكون الدافع إليها إطالة مدة الخطبة أو فترة مابين عقد القران والزفاف ، حيث يصاب الزوجان بشىء من الملل يدفعهما إلى التفرغ لإثارة مشكلات تافهة من لا شىء ولا أجد أمامى من سبيل سوى إقناعهما بالإسراع بإتمام الزواج لسد الطريق على هذه التوافه بدلا من أن تطل برأسها من آن لآخر وتهدد الزواج تهديدا خطيرا .

أما مشكلة تدخل الزوج فى صداقات الزوجة بشكل له ما يبرره فهنا أحتاج لوقفة هامة لأنها ليست مشكلة عابرة أو سهلة بل هى تمثل منعطفا بالغ الخطورة بلا جدال فى الزواج ، فإذا كانت صديقة الزوجة التى يعترض عليها الزوج دون مستوى الشبهات فإن توجسات الزوج هنا تنسحب على زوجته أيضا وتكون فى قرارة نفسه داخل قفص الاتهام . فلا يعقل أى إنسان أن فتاة كريمة الأخلاق تصادق فتاة سيئة الخلق . كيف يستويان ؟

مثلما تحاول بعض الروايات أو التمثيليات أن تصور لنا أن هناك فتاة فاضلة تكتشف — ويا للمفاجأة — أن صديقة عمرها سيئة الخلق .

مهما كانت ملابسات وظروف هذه الصداقة فإن القيم الصالحة لابد من أن تتصادم مع القيم السيئة — إذا جاز لنا أن نسمى الأخيرة قيما — وتتنافى بعضها بعضا .

إن تصادم القيم يمنع أصلا قيام صداقة بين قطبين متنافرين بهذا الشكل لكن هذا

الخداع لا ينطلي حتى على السذج ، والأخلاق لا تتجزأ ، بل تتكامل مع بعضها فى بنيان واحد وأقرب مثال على ذلك أنه حين تطرح أمامى مشكلة زوجة خائنة أكتشف من خلال الحوار معها أنها تكذب فى كل ما تقول سواء فيما يخص الموضوع أو ما لا يخصه .

إنها تعودت على الكذب وحسب . ورسولنا الكريم صلوات الله وسلامه عليه يقول : « إن الكذب يهدى إلى الفجور » زوجة تكذب من أول يوم تزوجت فيه وبشكل مستمر ومتعمد . تكذب على زوجها وعلى أهلها وعلى جيرانها ، هذه الزوجة لا يصعب عليها خيانة زوجها . ثم إنها لا يمكن إطلاقا أن تنشىء جيلا على خلق .

إن من السهل على المرء التعرف على شخصيات الناس وأفكارهم وأخلاقياتهم من خلال النظر إلى أنماط صداقاتهم ونوعية أصدقائهم . يجب على كل بنت تحترم نفسها وتحافظ على سمعتها أن تعرف ذلك جيدا .

فالفتاة الفاسدة ستعمد إلى تشويه وتلطيخ صورة صديقتها الطيبة بدافع من الحقد عليها والغيرة منها ، وهى بالتأكيد تعرف أقصر الطرق لغزو عقل هذه المسكينة حتى تجعلها كالعجينة اللينة فى يديها لتشكلها كما تحب . والشاعر يقول :

أعمى يقود بصيرا لا أبا لكمو قد ضل من كانت العميان تهديه

حكت لى إحدى الأمهات ذات يوم وهى تبكى إثر هروب ابنتها مع أحد الشبان كيف أن ابنتها هذه كانت قبل هذه الواقعة بعامين فقط لا تعرف من المدينة كلها غير الشارع الذى يربط بين بيتها ومدرستها ، إلى أن تعرفت على فتاة ماجنة وجريئة ولها علاقات بشبان لا حصر لهم فقلبت حياتها رأسا على عقب وعلمتها بطريقة شيطانية فنون اجتذاب الشبان واستمالتهم إليها حتى صارت تلك هواية تسرى فى عروقها مع الدم ، والنتيجة أن صديقاتها المحافظات بدأن فى الابتعاد عنها خوفا على أنفسهن من حديث الناس عنها .

ومن خلال تكرار هذه النماذج أمامى أعتقد أننى أستطيع تصنيف الفتيات من هذه النوعية إلى ثلاثة أنواع :

الأول : الفتاة المريضة بالنرجسية وعشق الذات ، وهذه تتخذ من العلاقات

بالشبان الآخرين عاملا يؤكد ذاتها أمام نفسها وتزداد سعادتها كلما ازداد عدد الشبان الذين يعرفون اسمها أو يمرون تحت (بلكونها) جيئة وذهابا أو يحتفظون برقم تليفونها .

وهى إذ ذاك تظن أنهم جميعا متعلقون بها ويهيمون فيها غراما وعبودية ، وتعتقد أنها أذكى فتاة فى العالم لأنها استطاعت أن توقع فى غرامها هذا العدد الهائل من الشبان حيث تستطيع أن تقلّبهم بين أيديها كما تقلّب السلع قبل شرائها ثم تكتشف بعد فوات الأوان أنها كانت أغبى فتاة فى الدنيا وأنها هى التى كانت تتقلب بين أيديهم كسلعة رخيصة لا يقدّرها أحد بأكثر من قيمتها وسعرها البخس وأنهم كانوا فقط يتقنون التمثيل للوصول إلى ما يريدونه منها من أغراض .

وتتدرج طبعا هذه الأغرض بحسب نظرة كل منهم لها وكلها أغراض غير بريئة طبعا ، وهى تعرف هذا ولكنها تتغابى أحيانا وتتغاضى أحيانا أخرى ثقة منها بذكائها المزعوم .

وهى فى كل مرة تنشىء فيها علاقة بأحد الشبان تدخل فى روعه أن علاقتها به مقدسة وبغرض الزواج ، فى حين هى تعرف أن هذا غير ممكن واقعيا فى الوقت الذى يكون فيه الشاب أيضا مستريحا لهذه العلاقة ومتفقا معها على أنها علاقة من أجل الزواج . المسألة كلها تمثيلية من الطرفين . فهى فى قرارة نفسها غير مقتنعة بأى زواج فى هذا الوقت وغير مستعدة له لأنه سيقيد حريتها وستكون مسئولة حينئذ عن سلوكها وتصرفاتها فى الوقت الذى لم تشبع بعد نهمها فيه من هذه العلاقات التى تعتبرها نوعا من التسلية وقتل الوقت واكتساب خبرات متنوعة من هذا وذاك إعجابا منها أيضا بنفسها وبذكائها .

وغالبا لا تقتنع مثل هذه الفتاة بأى زواج من أى واحد من كل الذين عرفتهم ، فهى تظل معتقدة أن الأيام ستجود حتما عليها بزوج تتوافر فيه كل الصفات الحسنة التى استخلصتها من كل من عرفتهم اعتزازا منها بنفسها وتوهما منها أنها جوهرة نفيسة لم تجد بعد من يقدّر قيمتها وأنه حتما سيأتى هذا الذى يعطيها السعر الذى تستحقه . فهى لا تدرى أنها صارت سلعة قديمة (روبابيكيا) لا تنفع أحدا بل لا تنفع حتى نفسها . وحتى إذا خدع أحد واشتراها بعد طلائها بطلاء زائف فسرعان ما ستنكشف له كل الحقائق . وعندئذ سيتعامل معها بالشكل الذى يليق بأمثالها .

النوع الثانى : وهى الفتاة المتمردة على واقعها صاحبة التطلعات المستحيلة . وهذه النوعية غالبا ما تكون فقيرة فى كل شيء إلى درجة الإفلاس . إفلاس مادى . إفلاس معنوى . إفلاس فكرى . إفلاس أخلاقى .

إن الفقر ماليا ليس مشكلة إطلاقا إذا واكبته القناعة ، لكنه يكون سعيرا متأججا عند من لديه تطلعات وطموحات لا يمكن بلوغها بالشكل العادى أو بالسرعة المناسبة للظروف خاصة إذا تلازم مع إفلاس أخلاقى .

فالفتاة المصابة بهذا الداء مستعدة دائما لأن تبيع نفسها للشيطان إذا كان لديه إمكانيات تحقيق تطلعاتها المنشودة وغير المحددة ، فالفقر الباعث على التطلع إلى الإمكانات الشرائية يمكن إشباعه واحتواؤه فى النهاية إذا صادف من يمكنه ذلك ، أما الفقر الأخلاقى فلا علاج له .

لقد جاءتنى ذات يوم فتاة من هذه النوعية تصطحب شابا تعرفت عليه فى المصيف على شاطىء البحر وصحبته أو بالأحرى (سحبته) لعقد قرانها عليه ولما سألتها عن أى أوراق تدل على شخصيتها فاجأتنى بأن أوراقها لدى أهلها وهى من جانبها تبرأت منهم يأسا من إصلاح أمرهم . أى والله بهذا اللفظ .

فهى تحب أن تكون — كما تقول — على حريتها وهم يرفضون . بمعنى أنها ترغب فى أن تذهب إلى المصيف فى الوقت الذى لا يملك أهلها إمكانات هذا الترف لأنهم يعيشون على الكفاف فالذى يحدث عند ذلك أنها فى دقائق قليلة تتعرف على أى شاب ويسافر إلى المصيف وهى متعلقة بذراعه وقد يختلفان معا ويتركها أو تتركه هى لتتعلق بآخر ثم ثالث ورابع حتى تعود من المصيف برونزية اللون مع شاب برونزى آخر ربما تعرفت عليه فى محطة القطار وهى عائدة مثلا . فهل يجوز لأهلها أن يقاطعوها بهذه الوحشية ؟! .

لقد ظلت هذه الفتاة تأتينى كل شهر تقريبا بشاب جديد تطلب منى عقد قرانها عليه لكن إرادة الله فوق كل إرادة .. كان الزواج فى كل مرة لا يتم إما بسببه هو أو بسببها هى أو بسببى أنا .. حتى فى المرات القليلة التى تم فيها الزواج لم يكن يستمر إلا فترة بسيطة أقصاها شهران وأقلها يوم واحد كما حدث فى إحدى زيجاتها بعد أن يفيق أى زوج من تأثير المخدر الذى يكون عادة على شكل كلمات معسولة منها قبل الزواج وقبل اكتشاف الحقائق . لقد كنت فى كل مرة أعقد فيها الزواج أحس من

داخلى بمنتهى القرف منها لأنى أعرف أن هذا الزواج لن ينجح وأن هذا الشاب مخدوع فيها بكل تأكيد .

هذه الزوجة لا تزال تعيش حتى هذه اللحظة بنفس الأسلوب الذى لا تغيره ولا تستفيد من أخطائها شيئا بل إننى أتوقع قبل الانتهاء من هذا الفصل أن أجدها أمامى ومعها ضحية جديدة .

لقد كانت لى جلسة طويلة مع مطلقها الأخير قبل أن يفلت من براثنها حيث جلس يحكى لى عن هول اكتشافاته من علاقاتها بشبان من كل شكل ولون وسن بل إن بعضهم يناديها باسمها فى الطريق فتقف له وتتكلم معه فقد أصبح له حق فيها لا يمكنها الرجوع فيه وله أن يأمرها بالتوقف والتحدث إليه فلا تقدر على تحديه أو إعلان الحرب عليه فإن جبهة القتال لديها مكشوفة على الدوام وهى لن تترك حتى من يردد قول أمير الشعراء أحمد شوقى :

إن رأتنى تميل عنى كأن لم تك بينى وبينها أشياء

وأمر هذه الزوجة لا يهمنى فى شىء لأنها تقريباً لا علاج لها إلا على يد متخصصين ، فهى مليئة بمركبات النقص بل وتحتقر أسرتها وظروفها ونفسها أيضا حيث لا ترى الدنيا إلا من خلال تعطشها للمادة التى جعلتها ألعوبة بيد الشبان الماجنين .

أما النوع الثالث : فهو الفتاة الجادة فى الزواج لكنها أساءت اختيار طريقها للحصول على الزوج المناسب فتوهم نفسها بأن العلاقات الكثيرة تعطيها فرصة أكبر للزواج ممن يناسبها وألاحظ أن غالبية الفتيات من هذا النوع إما دميمات أو على الأقل ليس فيهن جمال يلفت النظر وبدلا من الاحتفاظ بعناصر الجمال الداخلى لتساعد فى تعويض الجمال الخارجى فإنها تضيع هذا الرصيد هباء فى علاقات غير مجدية تشوه بها البقية الباقية من الصورة إذ أن الفكرة المتسلطة دائما على عقل هذه الفتاة هو أنها لن تتزوج أبدا .

فالتسرع فى الحكم وعدم الصبر يدفعهن لتصرفات طائشة تعانى من أثرها بعد الزواج .

وكما أن لكل قاعدة شواذ فإن نسبة قليلة من فتيات هذا النوع يملكن الجمال

والحسب ومع ذلك اكتشف أزواجهن أن علاقتهم بهن لم تكن الأولى فى حياتهن .

وقد يتغاضى الزوج فى حالة الفتاة ذات الجمال والحسب عن علاقاتها السابقة بعض الشيء ويسايرها فى تيارها ليُظهر لها أنه ليس زوجا متحجرا بل متحررا غاية التحرر .

لكن بعد الزواج يتغير كل شيء ويبدأ فى محاسبتها عن كل ماضيها ، لأنه إذا كان للدميمة بعض العذر فيما تفعل لما يموج داخلها من صراعات فإن الجميلة تملك من عناصر الجاذبية أكثر مقومات إغراء الرجال على خطبتها ، لهذا فإن علاقاتها دائما تفسر فى غير صالحها .

لهذا أحذر وبشدة كل الفتيات من أى علاقات مهما كانت بريئة لأنها ستشكل أهم العوامل فيما بعد فى تعاستها الزوجية . وأقول لهن :

إذا كانت هذه العلاقات ستفيدكن مرة فالأفضل الابتعاد عنها ألف مرة . فإن تسامح الزوج فى البداية لا يمكن بأى حال من الأحوال أن يكون مؤشرا للغفران .

وغالبا تأتى تصفية الحسابات بين الزوج وزوجته والنبش فى مخلفات الماضى بسبب أحاديث الناس العابرة فما لا تعرفه البنت دائماً هو أن علاقاتها ظاهرة ومعروفة للجميع والكل يتناقلها ويتندر بها وعلى أكثر تقدير يكون مصدر تسرب أسرار هذه العلاقات هو نفس الشبان أصحاب العلاقات السابقة .

فهى حينما تدخل فى علاقة مع أى شاب تتصوره ملاكا منزها وصفاته هى الأمانة والشرف ولا تعرف أن فتاها الهمام قد نقل كل تفاصيل علاقتهما إلى كل أصدقائه إن لم يكن قد زاد عليه بدافع التفاخر والظهور عليهم . والكل طبعا مستعد لتصديق أى شيء .

حكى لى أحد الأزواج بعد عقد قرانه بعدة أشهر وقبل إتمام الزواج أنه اكتشف مالعروسه من علاقات سابقة بالصدفة البحتة والتى قد لاتتكرر بنسبة واحد فى المليون .

قال لى إنه كان أثناء فترة تجهيز شقة الزوجية جالسا مع أحد أصدقائه تاجر الأدوات الصحية يتناقش معه فى نوعية ولون بلاط القيشانى المناسب لحمام الشقة وأثناء المناقشة التقطت يده ميدالية صغيرة ملقاة أمامه أخذ يعبث بها طوال الحديث

بغير اكتراث وهذه الميدالية الصغيرة عبارة عن فهرست بأسماء وأرقام تليفونات الأصدقاء وفجأة نزلت عليه الصاعقة إذ وقع بصره على اسم عروسه ورقم تليفون منزل أسرتها . وعلم من صديقه أنه كانت له علاقة حب معها ثم تعرفت بعده على فلان ثم فلان ..

كل هذا وصديقه لا يعرف أنها عروسه التى يشترى من أجلها بلاط القيشانى على حسب ذوقها .

وبعد تحرياته الدقيقة استطاع الوصول إلى كل ما أخفته هى عنه طوال الأشهر السابقة وفى خلال أيام قليلة فوجئت بهما أمامى بصحبة بعض أهلها وبعض أهله بعد أن اتفقوا جميعا على الطلاق قبل إتمام الزواج . وجلس الجميع جلسة صامتة كان الوجوم عندها هو المتكلم الوحيد فكان أبلغ من أى كلام .

فلما حاولت أن أفتح أنا الحديث فوجئت بمناهضة قوية من الجميع لمحاولاتى وقال لى الزوجان إن كل شىء نصيب ومع هذا فقد أفلتت من لسان أم الزوجة حكمة أو مثل يقول (يكفى العايب عيبه) وفى الحال خرجت أم الزوج من صمتها لتقول فى لهجة تحذيرية : (يا قلبى يا كتاكت ياما انت شايف وساكت) . وهنا أوقفت المناقشة .

وعلى الرغم من عدم إلمامى بعلم الكتاكت إلا أن المعنى يمكن فهمه بوضوح وهو أن كتكوتا يعرف بعض الكتاكت عن كتكوت آخر ولن يبوح بها فى الوقت الحالى ، وحتما سيبوح بها بعد الطلاق لكنه يستخدمها كمجرد تحذير أو إنذار على غرار إنذار بولجانين الشهير . كما أن الكتكوت الأول ينبه الكتكوت الثانى إلى أنه فى حالة عدم إتمام الطلاق بالشروط التى سيفرضها عليه فإنه سيضطر لفتح ملف الكتاكت .

وفى ٩٩ ٪ من الحالات يرضخ الكتكوت الثانى لتهديدات الأول وينفذ شروطه خوفا من فتح ملف الكتاكت لكن — ويا للخزى — فى ٩٩ ٪ أيضا من الحالات لا يستطيع الطرف الآخر الوفاء بالوعد فينشر كل ما يعرفه من أسرار بكل ما يمكنه من فضح وتشنيع .

إن تكرار هذه الصورة أمامى كل يوم بمشاهد مختلفة ومسامع متنوعة وروايات

من فم أصحابها يجعلنى ألح فى طلبى وبشدة على ضرورة مراجعة أسلوب تربية الأولاد والبنات والاهتمام بإذكاء الضمير فى نفوسهم خاصة فى مرحلة الشباب ، وإعادة النظر من جديد فى شكل وطريقة منح الحريات لهم ومتابعة صداقاتهم بطريقة ذكية تبدو خالية تماما من الملاحقة والتعقب .

فالأخطاء الجسام أراها دائماً مواكبة إما للإهمال التام والثقة الزائدة أو العكس حيث المتابعة المكشوفة التى تربى فى الإنسان الحذر واغتنام الفرص الذهبية تحت مظلة نظام صارم .

هذا الكلام إن كان يبدو للبعض نظريا بعض الشيء إلا أنه بكل الأسف واقع فعلى وإلا فأفيدونى أفادكم الله ماذا أقول وأنا أرى أمامى فتاة تخرجت من الجامعة وبكل الأسى والأسف من كلية تربوية ، أى يمكنها أن تعمل بالتدريس متى أرادت .

هذه الفتاة رغم النظام الدقيق والصارم فى المتابعة فى بيتها كانت تلتقى بالشاب المنعقد قرانها عليه فى بيته وعلى انفراد لمدة عام كامل خفية عن أهلها ثم فى النهاية بعد أن أدركت أنه لن يكمل مشوار الزواج من أمثالها اتفقا معا على الطلاق على أن تتضمن وثيقة الطلاق أنه لم يدخل ولم يختل بها .

وهكذا انسحبا معا من مسرح الجريمة تاركين آثار جرائمهما لتكون من نصيب شاب مسكين لا ذنب له ولا جريرة يتقدم لها فيما بعد طالبا الزواج بها .

إنها سلسلة من جرائم النصب والاحتيال والسرقة والفجور . فتاة بهذه الصفات البشعة لو التحقت بمجال التدريس ماذا يمكن أن تعلمه للطلبة أو الطالبات ؟ .

إن البنت التى تهدر كرامة أهلها وشرفهم وتحط عن رأس أسرتها تاج الفخار الوحيد الذى يعتزون به ويحافظون عليه وتميت ابتسامة الرضا والفخر فوق شفاه أبيها بتصرفاتها الدنيئة مع خاطبها ستجنى فى النهاية ولاشك ثمار جريمتها وحدها ، وبداية الفضائح ستأتى من خاطبها نفسه بعد أن قتلت الفرحة فى عين أبيها وبددت البهجة من قلب أمها وملأت عقول إخوتها بالشك والحسرة وشوهت صورتها عند خاطبها كما أنها لطخت سمعتها عند كل من سيروى له عنها من أصدقائه ويتندر بها الشرفاء لأن عدالة السماء لا تغفل .

وإذا كان البعض يرى أن عقد الزواج يفيد حِل الخلوة فأنا أرى أن عقد الزواج

غير كاف مالم يجز المجتمع ذلك بإشهار الزفاف بل أعتبر الخلوة جريمة موقوفة على الإنكار أو الإشهار حتى لو اعتبرناها وطئا بشبهة .

فالمجتمع متعارف على أن الزواج موقوف على إشهار الزفاف فى الوقت الذى يمقت فيه ديننا الزواج السرى أشد المقت حتى يجرده تماما من صفة الزواج فكيف تكون ولاية المجتمع على الزوجين وانتماؤهما له مفروضتين ومعدومتين فى نفس الوقت ، كما أن الخوف والتوجس المصاحبان للخلوة يؤكدان أنها عمل غير مشروع بل هى سرقة لاشك فيها ، فإذا أنكرا ذلك إذا تم طلاق بين الزوجين أصبحت جريمة لا يمكن إنكارها ، هذا رأيى وعلى الله قصد السبيل .



الفهـرس



رقم الإيداع
٧٧٢٤
١٩٨٩
الترقيم الدولى ٥ ـ ١٦ ـ ١٥٤٠ ـ ٩٧٧

دار الطباعة والنشر الإسلامية
مدينة العاشر من رمضان - المنطقة الصناعية ب ٢ ت : ٣٦٢٣١٣
مكتب القاهرة : مدينة نصر ١٢ شارع ابن هانىء الأندلسى ت : ٦١٨١٣٧

